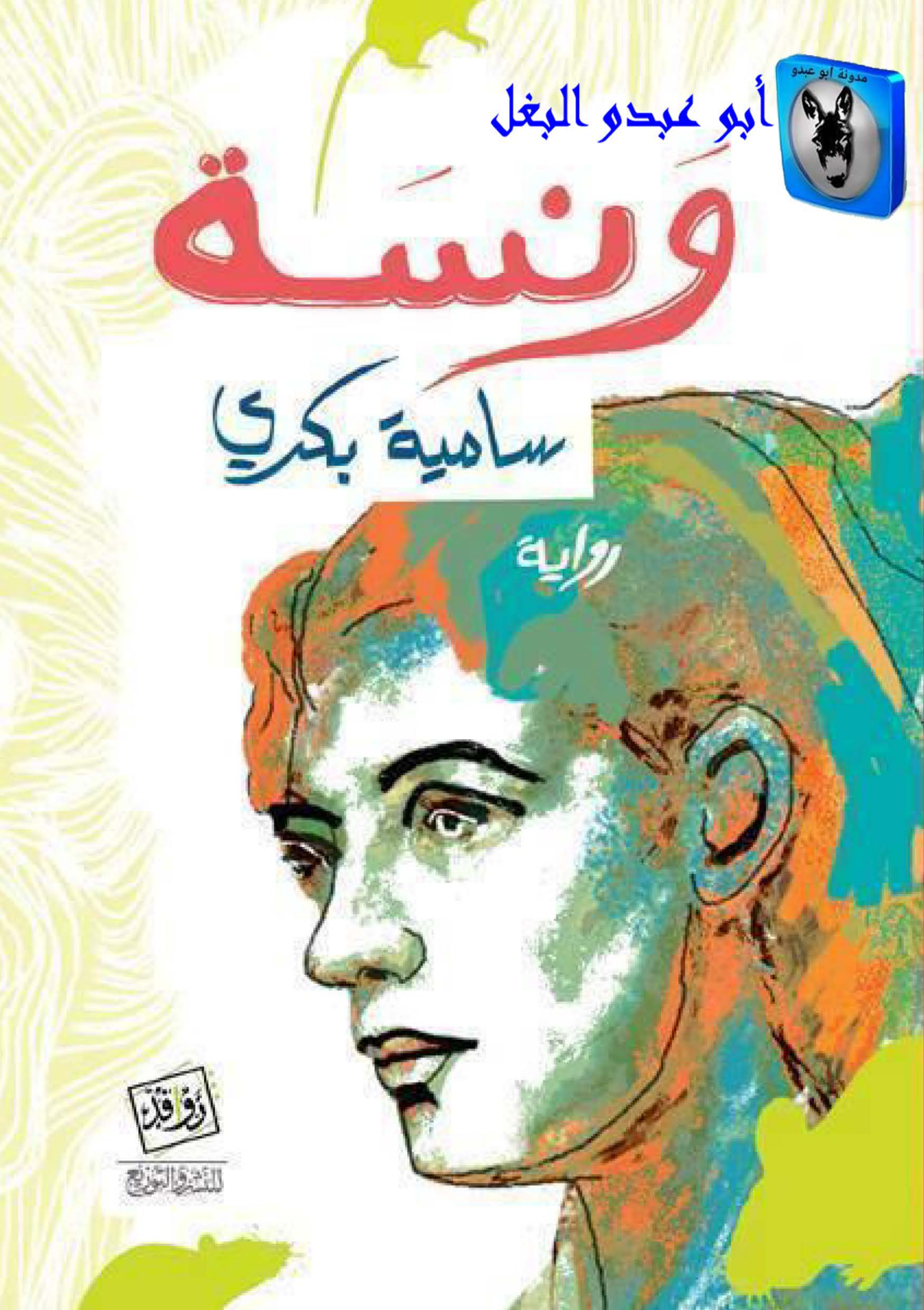

مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل
ونسة
سامية بكري
رواية
للنشر والتوزيع

بكري، سامية

ونسة / سامية بكري

٢٠١٤ ط ١، القاهرة. روافد للنشر والتوزيع

٩٩ ص ؛ ٢١ سم

١-رواية

٢-العنوان

أ – المؤلف

رقم التصنيف: ٨١٣ .٠٠٨

رقم الإيداع: ٢٠٧٣/ ٢٠١٤

الترقيم الدولي: ٤- ٠٢٦- ٧٥١- ٩٧٧- ٩٧٨



روافد للنشر والتوزيع

+٢ ٠١٢٢٢٢٣٥٠٧١

rwafead@gmail.com

www.rwafead.com

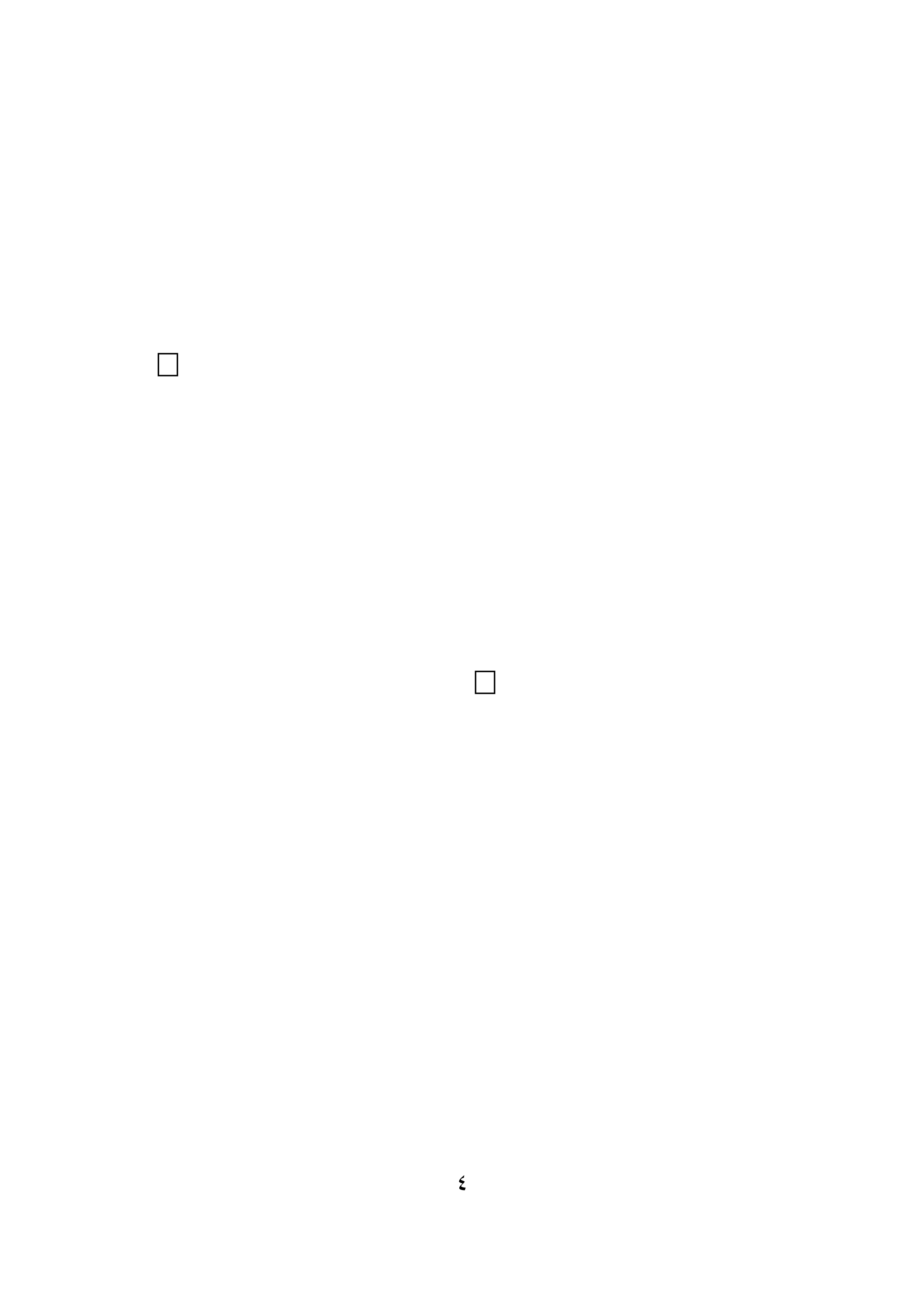
تصميم الغلاف: غادة خليفة

أحمد عبد المقصود:الإخراج الداخلي

ونسة

رواية

سامية بكري



إهداء

إلى ورشة الحكاية وما فيها

ومحمد عبد النبي

وطفلي مريم وسيف



شكر

اشكر الاعزاء لمساعدتي بملاحظاتهم القيمة بترتيب قرائتهم للرواية

الكاتب والروائي محمد داود

الكاتب والناقد مدحت صفوت

الكاتب والسيناريست باسم صلاح الدين

الصحفي والروائي محمد طاهر

الشاعر عاطف عبد العزيز

الفصل الأول

كان استمرار وجودي في هذه الشقة قد أصبح محل تفكير، فقد وجدت نفسي وحدي، بعد أن تسرَّبت من ثقب السلك الذي يمتد على شبَّاك المنْوَر بينما زاغ أخي الأكبر، ونطَّ في مطبخ شقة أخرى.

هكذا كادت الوحدة أن تقضي علي، كان البيت خاليًا إلا من فتاة ثلاثينية نصف جميلة تُدعى "ونسة"

رغم الهدوء الذي يبدو عليه المكان إلا أن المساء غالبًا ما يحمل إلى أذنيْ أصواتًا غريبة؛ موسيقى شعبية وأغانٍ رومانسية، وأحيانًا قرآن كريم تتلوه بصوتها المتحشرج قليلاً، وكأنها مصابة بنوبة برد لا تشفى أبدًا.

عِشرة هذه الفتاة صعبة، إنها تتناول القليل من الطعام، وبقاياها لا تسمح لي أن أسمن، أو أسد جوعي، يبدو أن وحدتها جعلتها أقل شهية للطعام، لكن ماذنبي أنا؟

قبل أن يستقر بي المقام بجوارها دخلت شقة أخرى بذات العقار، لكن والحق يقال رغم وفرة اللانشون، وروائح السمك والفراخ التي لا تنقطع عن الشقة وصاحبتها الملظلظة إلا أني لم أرتح نفسيًا، آه والله ياجماعة لم أرتح نفسيًا، لم أكن أنام بفعل سهر السيدة "ليلاتي" وخناقاتها مع زوجها السكِّير، صاحب المغامرات مع نسوان أجمل منها كما يقول، وأكثر قباحة كما تؤكد هي.

كانت الميزة الوحيدة في شقة أبلة اعتماد كما يسمُّونها في العمارة هي أنهم ملهيون عني في مشاكلهم، لا أحد يشعر بي، أو يفكر في مطاردتي أو إبادتي أو اصطيادي، كانت الأمور تسير بشكل جيد، إلى أن لمحني المفعوص ابنهم ذو السنوات الستة، وجرى صارخًا مذعورًا: فأر فأر، وكأني أسد سيهجم عليه ويلتهمه، وما كان لي خيار إلا القفز من شبَّاك المطبخ المفتوح لحسن حظي وقتها، وعبر رحلة شاقة على المواسير وصلت إلى مكاني هذا.

رائحة المطبخ تتسلَّل إلى أنفي حاملة العفن الذي كوَّنته خلال شهر بقايا الأطعمة، وعلب التونة الفارغة، والأطباق المتسخة، وسلَّة القمامة فالشقة هنا تضرَب تقلِب كما يقول البشر.

لكن رغم ذلك هناك إحساس ما ربطني بالمكان، ربما كان دفء أنفاس هذه الفتاة الغريبة التي تمتص برودة السيراميك المبلَّطة به شقتها، ربما كانت غفلتها عني وانشغالها الدائم بقراءة روايات عبير، وأجاثا كريستي، ومشاهدة المسلسلات التركي وبرامج الموضة، وربما كانت وحدتها وبساطة حياتها.

وربما كان احتياجي لونيس مسالم مثلها، أي نعم لقد شعرت والله بذلك منذ أن وطأت قدماي المكان، صدِّقوا ذلك، أو مصمصوا شفاهكم عجبًا وسخرية.

ما علينا فقد كان القدر يرتِّب لي معها موعدًا، كان ذلك في ليلة شديدة البرودة من الشتاء الفائت؛ وقتها كنت أفكر في الخروج قليلاً والعودة مرة أخرى لكسر الملل، لكني فوجئت بها تدخل إلى حيث

مخبأي المفضَّل فقد قرَّرت بسلامتها أن تبدأ تنظيف المطبخ، لكنها سرعان ما تراجعت بضجر، فتحت باب دولاب المطبخ ثم حاولت إشعال سيجارة من علبة قديمة في متعلقات أبيها الراحل منذ شهرين فلسعت إصبعها، أفاقت على رائحة شياط جلدها الملسوع فصرخت وتركت المطبخ.

قبل أن تمتد يدها لتفتح جهاز التلفزيون فاجأتها أصوات حركة في المطبخ، سمعت طبقًا يقع من فوق كومة المواعين المتسخة على حافة الحوض فلم تهتم. بعد ثوانٍ سمعت درفة دولاب المطبخ الخشبية المخلوعة تقع على الأرض، اقتربت من المكان بخطوات حذرة، محاولة تحديد مصدر الحركة.أضاءت النور، لمحتني هناك داخل إناء الشوربة الخاص بأختها هند، التي راحت بيت العدل منذ سنة.

كنت وقتئذ فأرًا قليل الخبرة، يحاول أن يخرج متشبثًا بجدران الإناء فتنزلق أطرافه، يكرِّر المحاولة من جانب آخر، فيفشل ويعود ليحاول مرة أخرى، كنت ألف وأدور داخل المج متحيرًا.

يااااه! سأتذكر تلك اللحظات جيدًا عندما يأتي رجال حملة التطهير إلى شقة ونسة.

مزيج من القرف والشفقة شعُرت به عندما رأتني داخل إناء الشوربة، أخذت تتأملني، شردت قليلاً، وتذكَّرت أمها الراحلة منذ عامين صائدة الفئران الأولى في المنطقة، كم كانت تعذِّبها رؤية مخلوق ضعيف محبوسًا بالمصيدة الصدئة، ينتظر مصيره.. الموت غرقًا في جردل القمامة، كثيرًا ما غافلت أمها وهي طفلة، وألقت ببقايا الطعام

إلى أحـدهم وهـي تجـري بعيـدًا خشـية البراغيـث أو الطـاعون، الـذي يحمله الفأر كما كانت أمها تردد.

تناولت بعض بقايا الجبن الناشف من أحد الأطباق، وألقت به إليّ، وأتبعتة بكسرة من العيش الناشف.

لم ألقَ بالاً لما قذف إليّ..........رحت أنظر إليها متوسلاً وهي تتأملني ثم تشرد بعينيها شبه الحولاء ربما بسبب الإرهاق أو السهر.

وهكـذا أخـذت أغافلهـا ثم أعـود لمحاولـة الخـروج مـن الإنـاء إلى أن انقطعت موسيقى تتر المسلسل التركي القادمة من بيوت الجيران حوار العيون بيننا، فتركتني وجرت إلى التليفزيون.

***

كـان قد أتى إليهـا معذَّبًا نادمًا، وقف تحت شرفتها ومعه الفرقة الموسـيقية يرجوهـا أمـام الجميـع ويشـهدهم ألا حيـاة لـه بـدونها، تعتذر"نور" بحزم وتقول إن حياتها معه صارت مستحيلة، تبكي ونسة، وتروح إلي الشاشة، تترجى نور"ليه كده يابنت الناس ربنا يهديكي؟"

وهكذا أخذت تقترب أكثر من الشاشة تاركة الكنبة لتتأمل عيون مهند، شعره الذهبي الناعم، رقبته، وصدره، وجسده الطويل الممشوق.

تحسَّست جسدها الذي هاجمته اللذة ومهند يغادر الشاشة تاركًا نـور، وبضـغطة على زر الكهربـاء غرقـت الصـالة في ظـلام لا يخفِّفـه إلا الضوء الصادر من الشاشة.

حملها مهند إلى الكنبة، حيث تنميلة حلوة ترخيها، ورعشات وآهات كانت تصدرها والبطل التركي يفك أزرار بيجامتها الساتان صينية الصنع، فوجئ بحجم نهديها النافرين كحبتي رمَّان طازجتين؛ دورهما معًا بيديه، كادت تصل إلى الذروة فترك نهديها وسألها بخبث:مالك حبيبي؟ مانّك مبسوط؟ تعلقت برقبته وجذبته إلى الكنبة.

سمعت جرس الباب فانتفضت جالسة، ارتدت ملابسها بسرعة وجفَّفت عرقها بطرف كسوة الكنبة، سارت إلى الباب ورائحة إفرازاتها تزيدها شبقًا.

- مين على الباب؟

- أنا أم هدير، والنبي وطِّي التليفزيون شوية، عمك الحاج مصدَّع.

أبو هدير نظراته تعرِّيها من ملابسها، وتفرك جسدها فركًا، لم يكن يضايقها من أمر تلك النظرات سوى اتجاهها لنصفها الأسفل، لو كان ينظر فقط إلى عينيها أو شفتيها كما يفعل مهند مع نور!

لم تكن تراه محدِّقاً في خدودها ولا رسمة حاجبيها والنغزة في ذقنها ولا في السمار الذي يندلق من رقبتها إلى فتحة الصدر ولا بحَّة صوتها، كل ذلك لا يعنيه.

تنظر إلى جسد أم هدير المتهدِّل بمنطقة الصدر المكتنِز بالشحم في الأرداف، لتعي أنه فقط يريد الخروج قليلاً من حوزة امرأة، تركت سنون الزواج على جسدها آثارًا لا تحاول محوها، إلى جسد أكثر شبابًا ونحافة، تبكي ونسة وتكره جسدها الذي يقف حائلاً بينها

وبـين أن يـرى أحـدهم وجههـا أو حـلاوة قلبهـا أو طيبـة عينيهـا أو جدعنتها.

تبكي طويلاً وتُقبل على الطعام حتى يمتلأ جسدها لكنها تصبح أكثر إثارة، فتتوقف عن الأكل حتى لا تثير النظرات الجائعة، ترتدي العباءة السوداء في خروجاتها القليلة لتخفي معالم جسدها فلا يرى أحد تفاصيله نَحِف أو سَمِن، وهكذا يظل هذا الجسد لغزاً، إنه مفتاح شـهوتها ومصـدر شـعورها باللـذة لـيلاً وهـي تحلـم بـأن رجـلاً وسـيماً يداعبه، وهو نفس الجسد الذي تمقت نظرات الرجال الشهوانية له.

تفكِّر كثيراً في معنى الحب لدى الرجال، ولماذا لم يكن أبيها يأتي لأمها بهدية إلا وترتدي بعدها قميص النوم الوردي، وتسوقها وإخوتها إلى النوم مبكراً.

تذهب إلى فراشها وتتخيل ما يحدث في حجرة نومهما، تطرب لموسـيقى ناعمـة وهميـة قادمـة مـن هنـاك، فأبوهـا يـراقص أمهـا تـانجو، يقتربان ويبتعدان عن بعضهما في خطوات رشيقة، ثم تميل على ذراعه، فيلتقطها في نهاية الرقصة، و يقبِّلان بعضهما حتى الصباح.

تشرد وتؤكد لها أفكار بنت الثامنة أنها ستجدهما في الصباح سمن علـى عسـل، وأن الخناقـة اليوميـة علـى زرار قمـيص مقطـوع، أو فـردة جورب مفتقدة لن يكون لها مكان أو معنى.

يأتي الصباح بما لا تشتهي ونسة؛ فها هي الأم تصحو مذعورة مهوَّشة الشعر على صوت المنبِّه لتعدَّها وأخوتها للذهاب إلى المدرسة، وتجهِّز لقمة الإفطار وكوب الشاي للأب.

القميص الوردي يبدأ مهمة اختزان روائح الأطعمة، فقد نسيت أن تخلعه أو ترتدي فوقه مريلة مطبخ، وكحل عينيها الأسود يسيح تحت جفنها السفلي قاصداً تلك التجاعيد الخفيفة التي يحفرها السهر والهم بتأنٍ، فيسرع في إبرازها للعيان.

الأب يصحو هو الآخر كعادته، لا يبدو عليه أنه كان يرقص التانجو، ويقبِّل حبيبته طوال الليل، والأنكى من ذلك أنه يتمخَّط في الحمام فيصل صوته إلى مسامع الجيران.

بعد أن ينصرف الأب والعيال لابد أن أمها تهرع إلى الحمَّام لتنال فترة استرخاء دافئة، تتخيلها ونسة في البانيو كبطلات الأفلام تداعب رغاوي الشامبو برفق وتمسح عن جسدها بدلال آثار ليلة غرام ساخنة.

عادت ونسة ذات مرة من طريقها إلى المدرسة مدَّعية أنها نسيت القلم الجاف لترى أمها في البانيو، لكن الأم فتحت لها الباب وهي تتثاءب بغضب، وكالت لها الشتائم التي تبدأ من مقصوفة الرقبة وتنتهي بالبلهاء.

عادت إلى طريق المدرسة وهي تتمنى أن تتزوج حتى لا تفعل ما تفعله أمها بنفسها.

صدمتها في أمها تذكرها بصدمتها في جارتهم العروس التي حضرت خطوبتها فرأتها جميلة بالمساحيق وتسريحة الشعر والفستان حتى خيِّل إليها أنها بخطوبتها تلك ستظل على هذه الهيئة من الفتنة والجمال الباهر

في الصباح ذهبت ونسة إلى بيت أم كريمة العروس لكي تسترد طاقم الأكواب الذهبي الذي استعاروه من أمها ليلة الخطبة، فوجدت كريمة جالسة إلى الطبلية منفوخة العينين، منزوعة المساحيق، ملمومة الشعر، تتناول مع إخوتها الفول والطعمية، وتلتهم قطع الباذنجان بشغف، يكاد يسيل الخل بالشطَّة من جوانب شفتيها عوضاً عن أحمر الشفاة الذي خلب لب ونسة ليلة الخطوبة.

ظلت ونسة شاردة تفكر إلى أن سمعت تتر نهاية المسلسل فانتبهت قليلاً، و عادت لتبحث عن شهوتها التي لم تكتمل يومًا، لم تجدها على الكنبة، ولا بين فخذيها.

***

دخلت إلى السرير لتنام، ضرستها أصوات مضغ وطرقعة الخبز الجاف الذي قرَّرت أخيرًا أن آكله.

اقتحمت عليّ المطبخ، الطعام في فمي، والطرقعة لا تتوقف، قررت أن تغرقني بالماء لتتخلص مني نهائيًا.

اللعنة على قلبها "العِلق"! هكذا أسرَّت لنفسها وهي تراقب صنبور المياة وهو يمطرني.

كانت سخونة الماء آخذة في الارتفاع وهي تراقبني، حاولت الخروج للمرة الأخيرة فانتفضت بلسعة حارقة.

لم تتحمل أن يشعر مخلوق بكل هذا الأذى لمجرد أنه فأر، شردت قليلاً بعد أن أوقفت المياه وراحت تفكر في القرار الذي ستتخذه حيالي فيما كنت أرتعش هلعاً وأتلفت حولي باحثاًعن مخرج.

قالت لنفسها :لماذا لا أجرب أن أتركه لحاله ؟ أطلقه على درجات السلم لينزل إلى الشارع، أو أضعه في كيس بلاستيكي أسود وألقي به بجوار أقرب صندوق للقمامة؟

ثم نظرت إلى بحنان لم أفهمه في البداية، وقالت لكنه هنا منذ مايقرب من خمسة ساعات، ويبدو لي رغم خوفي منه مسليًّا، على الأقل كسر وحدتي وجعلني أفكر في مخلوق آخر يقاسمني المكان.

تراجعت قليلاً أمام خاطر الإبقاء عليّ، فقد هاجمتها فكرة الطاعون والبراغيث، ثم عادت تتذكر أن هناك فئران بيضاء يستخدمونها لإجراء التجارب الطبية فهل هناك فرق كبير يا ترى؟

أوقفت تيارأفكارها حين لاحظت أنني قاربت على الموت بردًا وهلعاً، حاولت إنقاذي فلفَّتني بفوطة المطبخ، وخرجت بي إلى الصالة.

ملَّست على رأسي و فكَّرت: لماذا يقرف الناس من الفئران؟ ويربون الكلاب النجسة والقطط الخائنة كما كانت تقول أمها والسلاحف وحتى النسانيس القبيحة؟

نظرت إليّ متساءلة : دكر ولا نتاية؟

***

في الصباح استيقظت ونسة، ومازال صوت أمها في أذنيها ولا تدري إن كانت تحلم أم تتذكر. فقد رأت أمها تصطحبها مع أم كمال صاحبة المقهى إلى مستشفى الحوض المرصود بالسيدة زينب حيث تسكن؛ شافت نفسها في السادسة بضفائر طويلة، هناك شكت أمها للطبيب من بقع بنية في وجهها.وفي العودة أخذتها المرأتان إلى الرجل صاحب الفئران البيضاء، التي تكشف المستقبل، وتعرف الحظ أمام المستشفى.

الفأر أمسك بالورقة وأعطوها لونسة لتفتحها، وقرأ الرجل "لو شجر الصبر يطرح ودع، يبقى في الدنيا صاحب جدع".

جرَّتها المرأتان وهما تتضاحكان، بينما تبكي ونسة لأنها لم تجد "شوكلاتة" في البخت ولأن الرجل رفض أن يبيعها واحدًا من الفئران البيضاء.

شخطت أمها وهن يركبن الأتوبيس:"ياللا يا قليلة العقل".

"الفأرة امرأة فاسقة وإن كانت جماعة وألوانها مختلفة سود وبيض فهي الليالي والأيام والفأر الأبيض والأسود يدلان على الليل والنهار ومن رآه في نومه بالنهار وهو يغدو ويروح فإنه يدل على طول حياته، وإن رأى فأرًا يجئ ويذهب أبيض أو أسود فإنه يطول عمره، فالبيض أيام والسود ليالٍ"

ابتسمت وهي تقفل كتاب تفسير الأحلام لابن سيرين.

ربما كان لذلك الحلم وتفسيره الفضل فيما فعلته ونسة معي بعد ذلك فقد قامت واضعة الكتاب على المنضدة المجاورة، نفَّضت سريرها وغيَّرت الملاءة، وراحت تزيح أكوام التراب عن التسريحة والبراويز القديمة وتفتح شباك الحجرة لتهوِّيها، ثم أفطرت على عجل وغادرت المنزل.

بعد ثلاث ساعات عادت وفي يدها قفص صغير مغطَّى بالقماش الذي أزاحته فكشف عن فأرة بيضاء جميلة أصابها حر الطريق بالإعياء، أتت لها ونسه بالماء والجبن الرومي والخبز وراحت هي تأخذ دشًا.

في الصالة كانت الفأرة الصغيرة قد نطَّت بداخل طبق الماء الغويط وبلَّلت نفسها بالماء وبدت مثل ونسة تمامًا بعد حمَّام بارد في عز الحر.

في تلك الأثناء كنت في مخبأي خلف البوتجاز أحظى ببعض النوم المتقطِّع، وأستعد للقيام وممارسة عاداتي الليلية، التي تبدأ بالتجوُّل في المطبخ لالتقاط بقايا الطعام المتساقط من ونسة أثناء إعدادها وجباتها القليلة.

راحت ونسة تتسلَّى بالفرجة على زبادي وهي تتناول الطعام، آه نسيت أن أقول لكم أنها أسمت الفأرة زبادي أما أنا فقد فوجئت بها تناديني قائلة:"تعال يا توتو".

ولأول مرة ألمح الابتسامة على وجهها، وتبيِّن لي أسنانها البيضاء الأمامية العريضة، وهي تقف أمام البوتجاز، تنادي كأنها تعرف

مكاني، كنت أبص، وأعود لأختبئ، وأتسمع، حتى شممت رائحة فأر آخر.

كانت الفأرة البيضاء غريبة المنظر بالنسبة لي ناعمة هادئة مطمئنة على كف ونسة الممدود وهي تناديني "تعالى لسه خايف؟"

وخرجت من المطبخ بحركة استعراضية مرحة.

فكرت قليلاً وقلت : أجرب.

خرجت إلى الصالة، حيث تجلس زبادي في حجر ونسة التي رأتني أقترب بحذر، فرَمَت لي بقطعة من الجبن الرومي، شممتها جيدًا قبل أن أبدأ في قرقضتها بلهفة وسط ضحكات ونسة.

بعد ذلك وفي مساءاتنا الثلاثية، كانت ونسة تحكي لنا كل ما فاتنا من قصتها معنا وغالبًا ما كانت تروح عليها نومة، وهي تحكي وتتركنا وحدنا، وكان من نتائج ذلك أن حملت زبادي، وفي بطن واحدة أتت لنا بأربعة فئران اثنان بيض؛أطلقت عليهم ونسة، سنووايت، وحليب، وأسودان أسمتهما، الليالي والبيبي دول.

ذات مرة، وكانت زبادي حامل في البطن الثانية، زارتنا فأرة غريبة تسللت ليلاً من فتحة سلك شبَّاك المطبخ، بعد أن شمَّت رائحتنا في المكان. لفَّت المطبخ ولم تجد لنا أثرًا، فاقتحمت علينا حجرة النوم حيث كانت ونسة تلمُّنا حولها، بينما كنت أطعم زبادي المثقلة بحملها، وبمجرد أن رأت المنظر لَبَدت لنا في الحجرة، واستحسنت ونسة شجاعتها، فضمتها إلينا.

بعد أن نامت ونسة وبقية الفئران، قرَّرت التعرف على الفأرة الجديدة. وانتهى الأمر بمضاجعتها، فزبادي رغم بياضها ونظافتها، وعلى رأسي وعيني، فهي أول بختي، لكن ما شعرت به من الفتنة واللذة مع "كوكي" كما ستسميها ونسة لاحقاً كان فوق قدرتي على المقاومة.

بعد ذلك أصبحت أشعر بفضل ونسة أنني كبير عائلة، فقد أنجبت لنا كوكي خمسة في بطن واحدة، رعتهم ونسة ولم تبخل علينا بالطعام، ولا الشراب، ولا المؤانسة والحديث، حتى كان الواحد منا في زمن النوم بجوارها على السرير ذو الملاءة الحريرية، يكاد يصل وزنه إلى كيلو جرام وأكثر، ناهيك عن التوالد والتناسل بيننا والذي كان يتزايد يوما بعد يوم حتى قالت ونسة مشدوهة ذات صباح وهي تغمز ضاحكة:"بقيتم خمسة وأربعين فار!!

كنا نسعد بضحكتها فنتجمَّع حولها وننام على يديها وتحت إبطها وأقدامها.

أما هي فقد كانت تقول لنا في فضفضاتها الكثيرة:"نفسي راجل يبوسني من "بُقْي" ولو مرة واحدة بس، سني بقى اتنين وتلاتين سنة، والوحيد اللي لمسني........." تبتسم في نشوة وهي تتذكر ذلك الشاب الذي وقف وراءها في أتوبيس السيدة عائشة المزدحم وكيف أنها قررت النزول لتركب ميكروباص أو تاكسي لولا أنه أثار جسدها، جعلتها سخونة الجو ترخي نفسها تمامًا، وتسكت له وهو يمد يده إلى صدرها. لكن أحد الركاب لاحظ حركات الولد، فشتمه لينسحب

بجسده وينزل مسرعًا في أول محطة، وتشيعه هي من شبَّاك الأتوبيس بنظراتها.

لقد أطلقت على أحد أفراد قبيلتنا اسم "الولد الصايع"؛لأن حكَّاته في أجساد الإناث كانت تذكِّرها بذلك الشاب الذي استلطفته لأنه غازلها بعيونه ونظر طويلاً إلى وجهها قبل أن يجرؤ على فعل ما فعل.

في تلك الليلة ظلَّت تفضفض لنا حتى جاءها النوم، فغاصت في مخدتها لتغطَّ فيه بعمق وبراءة، ثم تصحو منتبهة على صوت بائع الأنابيب بضجيجه، يخبط مفتاح التغيير بأجساد الأنابيب النائمة فوق السيارة ليوقظ الموتى بذلك الصخب الذي يضرس ويشتِّت الدماغ، تذكَّرت ونسة رغم انزعاجها أنها تريد تغيير الأنبوبة فنادت البائع ليصعد إليها، وفيما كانت عيناه تخترقان فتحة صدرها دارتها بسرعة بالطرحة ومدَّت يدها له بالفلوس، فسحبها لامسًا يدها، فزغرت له وعيناها تطقان شرار جعله يهرع نازلاً السلالم، فتنزلق قدمه ويقع متدحرجًا على درجات السلم، لترتاح ونسة وهي تسمعه يصرخ متأوِّهًا، تضحك وتقول بدلال: "اللي ييجي عليا لسه ما اتولدش".

***

الفصل الثاني

في أمسيات مقمرة كانت ونسة تتركنا و تتسلل إلى حجرة نوم والديها وهي تتلفَّت حولها، و كأن أحدهما قد يفاجئها متلبسة بدخول الحجرة، تسمع من بعيد صوت أمها تؤنِّبها بعد أن كسرت زجاجة عطر، أو استخدمت الملقاط فأزالت نصف شعر جاجبها الأيمن.

تنظر إلى السجادة وقد غاصت أقدامهما فيها، وتركت آثاراً لآلاف الخطوات ما بين الباب والسرير وما بين السرير والتسريحة أو الدولاب.

حين تفتح الدولاب لتلقي نظرة بداخله يهتز مفرش ذهبي صغير مطرَّز على الكومود كانت أمها قد اشترته في أحد الأعياد وتمنَّت لو كان في حجرتها مثله، تتحسَّس المفرش ثم تشم رائحة يدها ؛هل هذه رائحة أمها أم أبيها؟ أم أن مرور الزمن وطول المعاشرة جعل لهما نفس الرائحة ؟

ملابسهما مازالت كما هي في الدولاب، ترفض حتى إعطاءها لفقير يحتاجها.

تقول لم يبقَ من رائحتهما غيرها.

تقف أمام مرآة التسريحة الكبيرة، وقفوا هنا آلاف المرَّات حتى أن المرآة قد تكون اختزنت صوراً لهما في حالات شتَّى.

تخجل من نفسها حين تباغتها صورتهما وقد اشتبك جسداهما أمام المرآة المثبتة في مواجهة سريرهما بزاوية محسوبة تماماً.

الآن تستطيع أن تخزِّن صوراً خاصة بها لتستحضرها وحدها كل مساء، ولا يطلع عليها غيرها.

الفكرة تتسحَّب إلى رأسها في البداية بنعومة، وكلما قاومتها كلما ازدادت قوة وشراسة وتشبثاً بالحياة وبالقفز من رأسها إلى حيِّز الوجود.

تخلع ملابسها قطعة قطعة، تستعرض تفاصيل جسدها أمام المرآة الكبيرة المذهَّبة ذات المهابة الغابرة.

تتلمس نهديها متأملة جمالهما، تتعجب للون الحلمتين، لماذا البني بالذات ؟

تتخيلهما بلون وردي يروق لها كثيرًا.

تراقب فخذيها وما بهما من شعيرات دقيقة لم يحن بعد اقتطافها بالحلاوة

وعلام التعجل ؟

تستدير قليلاً وتلتوي لتتمكَّن من رؤية ردفيها ثم تهمس لنفسها:"جامدة ياونسة والله اللي بيعاكسوا معذورين برضو"

تنهش الفكرة في دماغها لكي تستكمل خطة تنفيذها، فتمد يديها إلى الرف الخاص بملابس نوم أمها، تستخرج قميصاً من الساتان باللون الأحمرالقاني.

كانت أمها قد هجرت هذه القمصان من قبل وفاتها بما يزيد على عشرة سنين.. رائحة العرق القديمة مع العطر تصنع مزيجًا من كمكمة التخزين.

ترتدي ونسة القميص الذي طالما داعب خيالها، وتمنَّت أن ترتديه وهي طفلة.

من جهازها المحمول تنطلق أغانيها المفضَّلة، تبدأ في الرقص على صوت عدوية ثم شيرين وأليسا كلٌ حسب كلماته ولحنه ثم تنهي بأنت عمري لأم كلثوم.

الرغبة تقلق الروح، وليس الجسد فقط حتى لو كانت رغبة مجردة غير مرتبطة بشخص بذاته.

يبدأ الجسد دائمًا بالطلب الحثيث، ثم تسانده الروح القلقة المتوحِّدة بخجل ودون أن تتورَّط في تشجيعه يكفي أن تصمت إزاء مطالبه.

صلاة العشاء ؟ مش هتفوتنا حمَّام سخن بعدها ونصلي.

- مش كده حرام؟

- وإيه الحرام في كده؟

لا تترك ونسة لروحها فرصة التراجع فهي تعلم أن تلك اللذة التي سيحظى بها جسدها قد تسكنها قليلاً.

تخلع القميص وتحدِّق طويلاً في تضاريسها الشابة ونهديها البارزين و النهر المحفور بينهما، تضغط على حلمتيها برفق، فيجن جنونها ثم تجري لتختبئ تحت البطانية، رغم دفء الجو.

حين تنتهي من العادة السرية تكون قواها قد خارت، يلتف ذراعاها حول روحها المنهكة الصامتة ونهديها المتعرِّقين، فيما ترفع فخذيها لتلامس بطنها ركبتيها، وتستسلم للنوم حتى الصباح.

***

ذات مرة زارتنا نعمة صديقة ونسة التي لم تتوقف عن البكاء والنهنهة والزن طوال جلستها معها.

كانت نعمة تتوسل لونسة أن تساعدها، وتستر عليها.

ردت ونسة بخشونتها المعهودة عليها سائلة إيَّاها:كان فين عقلك يا بايظة؟

يبدو من سياق الحديث أن نعمة صديقة مقرَّبة لونسة، فهي تكاد تلطم لفرط صدمتها وفقدان البنت لشرفها، ثم ما تلبث أن تحنو عليها محاولة إيجاد مخرج لها من تلك المصيبة.

حاولت ونسة أن تعرف مَنْ السبب في ضياع شرف نعمة وحملها سفاحًا لكنها فشلت فقالت لها والدموع تغلبها طيب هتعملي إيه في المصيبة دي؟

ردَّت نعمة:تعالي نروح لدكتور نسا وولادة واحدة صاحبتي قالت لي على عنوانه، ساعديني يا ونسة.أنا ممكن أتقتل فيها.

ونسة طبطبت على البنت واحتضنتها، لا أقول إنها وضعت نفسها مكانها فونسة وإن كانت طيبة وساذجة بعض الشيء لكن "كله إلا الشرف ".

إنما ونستنا كانت ضعيفة يا ناس أمام أيَّة صديقة، لذا كانت تختارهن بعناية فائقة لأنها تعلم جيدًا أنها وقت الشدة لن تتخلى عن فتاة أو امرأة تقاسمت معها العيش والملح، ولو كلَّفها ذلك مشقة كلام الناس الذي يسم البدن أو تلقيحهن في الجيئة والرواح.

ورغم صديقاتها القليلات كانت أمها تنصحها دائمًا قائلة: ياعبيطة بصي لي أنا لا مصاحبة ولا متصاحبة، وأما يفيض بي الكيل من إخواتي أشكي لأبوكي وأما "يِتْمَلْعَن" أبوكي أشكي لإخواتي.

كان يحق ذلك لأمها، أما هي فبمن تستعيض عن الصديقات؟ لا زوج ولا حبيب ولا أخ حنون ينصفها، ولا أخت تستمع لها، فلتكن وسطًا لا تكثر من الصديقات ولا تقطع صلاتها بهن تمامًا، ولتكن نعمة وهدى بنت أم شريف وإيمان زميلتها القديمة في المدرسة الثانوي هن صديقاتها وموضع أسرارها، لكن إيمان تزوَّجت وسافرت السعودية، وهدى أيضًا تزوَّجت وألبسها زوجها النقاب، ومنعها من زيارة الصديقات، والأقارب، ولم يبقَ سوى نعمة حبة أخيرة من عنقود الصديقات القصير.

ألَّحت ونسة في معرفة تفاصيل اغتصاب نعمة، وتسمَّعت أنا الحكاية من تحت كنبة الأنتريه.

حكت نعمة ورأسها في الأرض قائلة إنها نامت حزينة في تلك الليلة، تفكِّر في ابنة عمها التي تزوجت من شاب وسيم رغم أنها تصغرها بخمسة أعوام، شعرت أن قطار الزواج فاتها، نامت بكمدها وغلِّها وإذا بها تفاجأ بشخص ضخم الجثَّة ذي شارب عريض يزورها في الحلم، ويغازلها برقة ونعومة حاولت الهرب منه لأنه لا يشبه البشر لكنه كان يحيط بها من كل جانب ويجدها بسهولة كلما حاولت أن تهرب، وفي النهاية تكوَّرت في مكانها فيما اقترب منها لينزع عنها ملابسها قطعة قطعة، لم تشعر بأيَّة لذة وهو يرقدها تحته ويدخل فيها شيئًا يشبه آلة حفر أو شنيور كبير، وعندما استيقظت من نومها كانت ملابسها الداخلية مبلولة بسائل أبيض لزج، بعدها انقطعت الدورة الشهرية وأجرت تحليلاً عرفت منه بمصيبتها السوداء.

ثم انطلقت تتوسَّل وتبكي: ساعديني يا ونسة أنا بريئة والله أنا مغتصبة، ومحدش هيصدق حكايتي.

تسألها ونسة:

والجنِّي دا ماظهرش تاني طفش يعني؟

تشرد الفتاة قليلاً قبل أن تجيب مؤكدة لونسة أنها حلمت به بعدها وقد احترق في فرن كبير، واختفى أثره بعد أن تحوَّل إلى رماد أسود انتشر في الجو ولم تعد تراه في الأحلام بعدها.

راحت الفتاتان لطبيب أمراض نساء تخصص في هذا النوع من العمليات.

جلستا قبالته ونظراته تتفحصهما، العملية تتكلف ٢٥٠٠ جنيه تُخرج نعمة ١٥٠٠ وتكمِّل ونسة الباقي.

بعد أن يتم تخدير نعمة تتوسل ونسة للطبيب: خلِّي بالك منها يا دكتور البنت ممسوسة وحامل من جنِّي مش بني آدم، أوعى تفتكر إنها لامؤاخذة بنت كده ولاَّ كده.

يبتسم الطبيب ساخرًا :جنِّي؟ ما جنِّي إلاَّ بني آدم.

تبتلع ونسة تلميحه وتروح تنتظر صديقتها بالخارج، تمرُّ عليها الدقائق كشهور طويلة، تبكي، تبتهل إلى الله أن يمرَّ الموضوع على خير، وأن يستر الله على صاحبتها وعليها من الفضيحة.

تهمهم بقلق وخوف: سواء جنِّي أو بني آدم استر يا ستَّار، اشملنا برحمتك ياعليم بحالنا، احمينا يارب من ذنوبنا، خلِّيك ستر وغطَّاء على ضعفنا وخيبتنا و خطايانا.

تعلم هي أن نعمة بنت جدعة وطيبة وعلى نيَّاتها، تعلم أن روايتها قد تكون كاذبة، لكنها قد تكون صادقة أيضًا، ألم يذكر الله الجن في القرآن ؟

ألم يحذِّرنا منهم ومن أفعالهم ؟ وإلا لماذا ينصحنا الشيوخ بالاستعاذة من الخبث والخبائث لدى دخول الحمَّام ؟ ولماذا تنهى المرأة عن التعري والوقوف أمام المرآة معجبة بجسدها أو فاحصة إيَّاه؟ أليس لأن الجن يتربَّص بها ؟ وقد يقع في هواها ويجرى ما جرى لنعمة؟

في كل الأحوال عليها أن تتحمل الموقف حتى نهايته.

خرجت نعمة من التخدير وقد تخلصت من الجنين، واستدعى الطبيب ونسة قائلاً: خلاص وهو يشير إلى سلة القمامة، حيث يقبع هناك بجوار القطن والشاش وأمبولات الحقن المستعملة ما أخرجه من بطن نعمة، الدماء في السلَّة ورائحة التخدير المنبعثة من فم نعمة أثارا قرف ونسة، فجَرَت إلى الحمَّام لتفرِّغ ما بمعدتها.

تماسكت لتصطحب نعمة في تاكسي إلى البيت.

ضائعتين، حزينتين دخلتا شقة ونسة لتستريح نعمة قليلاً، وبعد أن أفاقت أعطتها ونسة الفوط الصحية التي وضعتها منفِّذة نصيحة الطبيب : قولي لأمك أن الدورة نزلت أخيرًا، الدم هاينزل لمدة ثلاثة أو أربعة أيام.

خرجت نعمة وهي تقبِّل ونسة وتشكرها فيما تشعر ونسة بمرارة في حلقها وهي تربِّت على كتفها : بس خدي بالك من نفسك بقى.

عادت ونسة بعد هذه الحادثة إلينا أكثر حبًا ورغبة في تعويضنا عن أيام غيابها وانشغالها بمشكلة نعمة.

أكثر من مرة كانت تحدث كبسة؛ حين يأتي لزيارتها بعض الأقارب فتخبئنا تحت السرير، أو في بلكونة حجرة النوم، حيث كنا نتسمَّع ما يقال بالخارج.

في إحدى المرَّات اقترحت زوجة أخيها الأكبر أن تُباع الشقة لكي يحل كل منهم مشاكله المادية.

ردَّت ونسة بخشونة: وأنا أروح فين؟

هي دي هي وصية أبويا وأمي؟

حتى عضم التربة نسيتوه؟

كانت أمها قد أوصت ببقاء الشقة، حتى لو تزوَّجت ونسة، لكي يجتمعوا بها في الأعياد كما اعتادوا أثناء حياتها.

تساءلت ونسة عن تلك المشاكل المادية التي تصيب فجأة أُسر طبيب ومهندس وتاجر.

ليلتها عادت ونسة لتخبرنا في حزن ألا أحد يفكر في ونسة، لا أحد يسأل ماذا يوجعك يابنت

ااه بنت ٣٢ سنة ولسه بنت!

نساء شارعهم في الحي الشعبي قراشانات؛ طالما ثرثرن حولها وكانت الحكاوي تصلنا، كن يقلن أنها "عانس فاتها قطار الزواج" والحق أن البنت كانت لها طباع صارمة بعض الشيء مع الناس من حولها، كانت لا تجيد الضحك في الوش والمِحْلَسة والنميمة، كانت بوجه واحد تقول رأيها دون مواربة وكما حكت لنا وهي فخورة بنفسها: "أقول للأعور في عينه يا أعور"

ربما اكتسبت هذه الصفة من جدتها لوالدها التي كانت تسير في الدنيا كالقطار، لا تعرف طريقًا للمجاملات الاجتماعية، أو الكلام المزوَّق، فلاَّحة مائة بالمائة تشقَّقت بشرتها في شمس الغيطان، فكستها سمرة محبَّبة، وهبتها الحياة مظهراً أنثوياً مع صوت رجولي خشن، حتى أنهم أطلقوا عليها "وفدية الدَّكر" لكن جدها زوج الست "وفدية" كان مَوْالاً آخر، وحكاية مختلفة تمامًا. ونسة كانت تحب جدها "الحاج علي" كثيرًا، تسترجع معنا ذكرياتها معه قبل أن يتوفَّى عن عمر يناهز

التسعين فيما كانت هي في الثالثة عشر، الجد كان متصوفًا كبيرًا هكذا تؤمن ونسة ككل العائلة، ألا يكفي أنك حين توقظه فجأة ينتفض ويصرخ:"حيّ" ا؟

أليس معنى ذلك انشغاله الدائم بذكر الله نائمًا وصاحيًا؟

كان الجد أيضًا يقرأ لابن عربي وجلال الدين الرومي ويطرب لإنشاد الشيخ ياسين التهامي حين يقول:

أكاد من فرط الجمال أذوبُ

هل يا حبيب فى رضاك نصيبُ

كان جدها يحضر حلقات الذكر في القرية، ويصاحب دراويش السيدة زينب والحسين.

ذات مرة غاب جميع من بالبيت إلا الجد وونسة التي جاءته باكية معتذرة لأنها أكلت نصف كمية الجبن القريش خالي الملح المخصَّص للجد صاحب الضغط العالي، ضحك الجد كثيرًا ومازحها بأن من يأكل جبن المرضى يدخل النار وفي فمه طبق جبن لا يخرج منها حتى يطعم إبليس وزبانية النار منه.

تبكي ونسة لأن عَمْلِتها ستعرضها لخدمة إبليس، ويضحك الجد ويفهمها أنه يمزح، يأخذها في حضنه يباركها ويقرأ آية الكرسي على رأسها، يقول لها أنت فتاة مباركة، ضميرك صاحي والخير يجري في دمك.

هالة من النور والرضا كان يراها الجد وحده فوق رأس ونسة أينما راحت، أما الأم وبقية العائلة فلم يكونوا يلقون لكلام الجد بالاً، تسمِّيها الأم هلوسات، ويسمِّيها الأب دروشة.

يروح الجد في تسبيحاته وتهويماته من بعد عودته من صلاة الفجر متعكزًا على ونسة التي تجلس تتساءل أمها ساخرة:هالة مين ؟ وضمير إيه؟

البنت كانت خايفة أن حد يكتشف أكلها جبنة جدها المريض فنوبخها فاعترفت بنفسها آدي كل الحكاية

وتراقبه وهو يردِّد أسماء الله الحسنى، ويسبِّح، ويحوْقل ثم يحكي لها عن كلمات مولانا جلال الدين الرومي: المؤمن الذي غذاؤه التقوى المتقدة يستلهم بدموعه معرفة لم تدرسها المدارس قط.

ربما فهمت نصف الكلام وربما حفظته لجرسه الجميل ولطريقة الإلقاءِ المنغَّمة التي كان يقوله بها الجد، لكنها مازالت تحفظه وتردده حتى اليوم.

معنا كانت ونسة تحكي وتحكي وهي تطعمنا وتحمِّمنا، نسمع الأغاني ونرقص سويا أمامها، ننثر أوراق الورد على وجهها، نعد لها الشبشب لكي ترتديه في الصباح ونحمل لها الروب الحريري ونساعدها في تنظيف المنزل والطبيخ.

وفي المساء تفتح قنوات الأفلام الأجنبية؛ فتزورنا "جوليا روبرتس"، و"أنجلينا جولي"، ونرى ونسة تتحدث مع "توم هانكس"، وتبكي على صدر "ريتشارد جير"، وتراقص "ال باتشينو".

لم تعدم ونسة لحظات من الفرح زارتها ونحن معها كان ما يفرحها غير ما يفرح بقية البنات لا الذهب ولا الملابس ولا الفلوس.

مرة رأت عصفورًا وحيدًا يقف على سور بلكونتها، يلتقط حبوبًا وقعت سهوًا منها وهي تنقي الأرز.تعمَّدت بعد ذلك أن تترك طبقا مليئًا بالحبوب المنوَّعة، واعتاد العصفور أن يرتاد بلكونتنا يوميًا ليلتقط الحبوب، ويومًا بعد يوم زاد وزن العصفور، وصار غير كل العصافير.

رأى العصفور ونسة مرة تبكي وحدتها واحتياجها لحضن دافئ، فبكى حتى أغرقت دموعه أرضية البلكونة، وسرحت على الصالة الكبيرة حيث تجلس ونسة التي لامست قدماها بركة المياة الساخنة، انتفضت مندهشة وتوقفت عن البكاء كان الوقت صيفًا وهذه ليست أمطار.

خرجت إلى بلكونتها لتجد العصفور يذرف الدمع لأجلها، اقتربت منه وقبَّلته في فمه، وسط ذهولنا انقلب العصفور إلى شاب وسيم طويل ذي عينين عسليتين واسعتين، كان يشبه الممثل عمرالشريف فتى أحلام ونسة الذي حفظت أفلامه عن ظهر قلب.

فؤاد ونسة الذي انخلع لم يكن على قدر المفاجأة، أغشي عليها، فجرينا إليها لننقلها إلى سريرها، وبينما قام بعضنا بإسعافها وإفاقتها، كان آخرون يبحثون في البلكونة عن العصفور وبِرْكة المياة لكنهم لم يجدوا شيئًا سوى قلوب ورقية صفراء ووردية ملقاة على كرسي البلكونة البلاستيكي، وبعض الحبوب التي كانت تقدمها للعصفور.

في أمسيات أخرى كنا نستمع إلى أم كلثوم تشدو بأغانيها على قناة روتانا كلاسيك أو الإذاعة، تسرح طويلا في معاني قصائدها وأغانيها، تتذكر جدها المتصوف حين كان يؤكد لها أن أم كلثوم لا تغنِّي لمحبوب رجل فانٍ، يأكل الطعام ويدخل الحمَّام مثلنا، إنها تشدو وتهيم في حب الله ورسوله.

أليست القائلة: دعاني لبِّيته لحد باب بيته؟سيدة محترمة في مقامها أتزور رجلاً في بيته؟ طبعًا تقصد زيارة بيت الله الحرام، وهكذا في بقية أغانيها وقصائدها إنما تناجي الله وتتغنَّى بعشقه، ويحسبها العامة والجهَّال تغنِّي لمشاعر فانية كأجسادهم البشرية.

ذات مغربية عاد الولد الوسيم الذي كان عصفورًا مرة أخرى وهي تسمع أم كلثوم في أغنية أغدًا ألقاك، اقتربت منه ونسة وقبَّلته في فمه، عاد لطبيعته عصفورًا، ربتَّت ونسة على ظهره وأطلقته يطير في الهواء مخلِّفًا وراءه رائحة زكيِّة وبعض القلوب الورقية الوردية.

تبتسم ولا يحزنها فراقه، وتروح تطبخ لنا ألذ الأطعمة، فقد انفتحت شهيتها بعد عشرتها معنا، وصارت تعد لنفسها أطباق الخضار واللحوم والأرز، ونأكل نحن الجبن الرومي واللانشون، وأحيانًا الفراخ والسمك الذي نعشقه.

أخوة ونسة الرجال مختلفون عنها تمامًا، ونسة كانت حبة كريز سمراء ملتهبة بالمشاعر حانية القلب، فيما كان إخوتها يشبهون الخيار أو القرع "يمدون لبرا" كما كان الجد يردِّد دائماً كنت أسمعها تشكو لصديقتها نعمة جفاء أخوتها، وقسوتهم، وانكفاء

كل منهم على بيته وزوجته تمامًا كما كانت تقول أمها متندرة بالمثل الريفي:اللي أحطَّها تحت فخدي أحسن من أمي وأختي.

الواحد منهم لا يستمع لشورى أو رأي إلا من زوجته الخبيثة ذات الرغبة الدائمة في السيطرة على ونسة وعلى الشقة ومحتوياتها.

تستكثر عليها زوجات الأخوة ما تركه لها الأب والأم من أثاث وأجهزة كهربائية ومعاش شهري، رغم أنهن يعشن عيشة مستريحة ولا ينقصهن شيء، إلا أن فلوس ونسة، والبيت الكبير المطل على ميدان السيدة زينب العريق يحلو دائمًا في عيونهن.

الشقة تساوي الكثير فلماذا لا تنتقل ونسة للإقامة مع أسرة أحدهما؟ وتؤجِّر الشقة ليحصل كل أخ على نصيب من الإيجار أو يتم استغلالها في أي مشروع تجاري؟

تلك الأفكار كانت تدور دائمًا في رأس ونسة، ربما كانوا فعلاً يفكرون هكذا، وربما لم يكن أحد يأبه بكل ذلك، ربما كانت مجرد مخاوف وأوهام، من يعرف؟

معارف ونسة قليلون لكنهم مميزون من أهمهم الكونتيسة أم عزة؛ صاحبة محل لمستلزمات بدل الرقص ودلاَّلة وبائعة ملابس.

والكونتيسة ليس اسمها في دفاتر الحكومة وكمبيوتراتها، ولا حتى لديها ابنة اسمها عزة فاسمها الحقيقي أمورة.

و"أمورة" حكايتها طويلة؛على أنغام أم كلثوم وهي تغني، والبخار يتصاعد من أكواب الشاي باللبن الساخن كانت دردشتها الصاحبة المرحة مع ونسة كل يوم خميس.

كانت كل بيوت الحي تتعامل معها بتحفظ من بعيد لبعيد، تجلب لهم قمصان النوم والملاءات لجهاز العروس، ولا يخلو الأمر من بدلة رقص أحيانًا تطلبها الفتاة المدندشة سرًا من خلف ظهر أمها وتتيحها لها أم عزة بسعر متهاود، وقد تكتشف أم الفتاة وجود البدلة في جهاز ابنتها فتلقي بها في وجه الدلاَّلة إذ أن البيت محترم، والبنت لا يجب أن تخرج منه ببدلة رقص، ألا يكفي قمصان النوم والملابس العارية للبيت ؟

فليشتري العريس بدلة رقص إذا كان له مزاج، وإذا لم يكن فلتوفِّر الأسرة ثمنها المرتفع، وما قد تجلبه من مصمصة شفاه أم العريس التي ولابد سوف تتفقد جهاز العروس وملابسها قطعة قطعة ليلاً بعد أن تفرش العروس وأهلها وأصحابها الشقة.

في تلك الليلة وكما هو متعارف عليه في الأحياء الشعبية تروح أم العريس وبعض قريباته وبعض سيدات الحي من الجيران إلى شقة الزوجية،

يبدأن أولاً بفحص طريقة فرش الجهاز، ورائحة المكان، ثم يتجهن إلى المطبخ للفرجة على أجهزته من ثلاجة وخلاط ومفرمة، ويفحصن الملاعق والأطباق، والحلل، وأطقم الصيني والجيلي، والأكواب والكاسات، ثم يأتي دور الدولاب فيفتحنه ليشاهدن ملابس العروس وقمصان نومها قطعة قطعة، وياويل العروس وأهلها من ألسنتهن الحادة لو لم ترُق الرفائع للحماة.

تستمع ونسة إلى حكايات الكونتيسة مبهورة، فلولاها ما عرفت الكثير من دقائق أسرار البيوت، بل ونفوس أصحابها تلك الدروب المتعرِّجة المستعصية على الفهم والمثيرة للشفقة أحيانًا، وللإحباط أحيانًا أخرى وللسخرية ثالثة.

أم جويا كانت حكايتها دائمًا هي الأكثر إثارة وهي تلك الجارة التي تسكن العمارة المجاورة مباشرة لعمارة ونسة.

تزوجت أم جويا" أو "كريستين" من عماد صاحب محل الذهب بالصاغة وعاشا حياة هادئة أنجبا خلالها "جويا وأليس"إلى أن تعرَّف عماد على فتاة لعوب بدأت تنصب شباكها حوله، لم تكن ترغب في الزواج منه لاختلاف الأديان كانت فقط تريد أمواله، ولأن عماد كان قليل الخبرة تصرَّف كزوج في منتصف الثلاثينات انشغلت زوجته الشابة بعملها في مكتبة الكنيسة صباحًا وبابنتيها بقية النهار، وبالنوم ليلاً مرهقة ومتعبة.

تصوم أم جويا وتصلِّي كثيرًا وتتصدق، وتقول إن الجسد فانٍ، تكره أن تستجيب ليلاً لما يلذ للنساء، لا تحب العطر، والقمصان الوردية والسلاسل وخلافه كما تحكي الكونتيسة وهي تشفط رشفات الشاي أبو لبن الساخن، ثم تتكرَّع وهي تحكي لونسة الغارقة في الدهشة لأذنيها.

البنت اللعوب ظلت تخايل الجدع في محل عمله، تدوَّخه بعطرها تارة وأخرى بتثنِّي أجزائها السفلى المحشورة في جيب أسود قصير ضيق

يكشف عن ساقين بلوريتين، تتمايص في الكلام وتصوِّب نظراتها اللعوب إلى عينيه.

العجيب أن أم جويا لم تكن وحشة أو منفرِّة أبدًا، على العكس كانت بيضاء ناعمة البشرة، متواضعة، حلوة الروح، لكنها كانت مشغولة لشوشتها في العمل والبيت، والرجل من هؤلاء يريد من تناغشه، وتهتم برجولته وتدلِّله خاصة في السنة السابعة من الزواج كما أكدت خبيرة العلاقات الزوجية الخاصة أم عزة التي تضحك وتداري سِنتها الذهبية وهي تقول لونسة أنها لا تريد أن تفتَّح عينها على هذا الكلام، ثم تواصل، مع الأيام دبَّت مشكلة كبيرة بين عماد وزوجته بسبب البنت اللعوب، فقد ظلت كريستين تتجاهل كلام الناس الذي وصلها عن خروج عماد مع الفتاة واصطحابه لها في سيارته وأحيانًا في شقق أصدقائه المهاجرين إلى كندا والتي أستأمنوه على مفاتيحها، أو شقته الخاصة في الشيخ زايد، لم تعد تصبر على كل ذلك وبعد أن كانت تداوي قلبها بالصلاة والصيام انفتحت عيناها رغمًا عنها على الجحيم حين رأت دليل الخيانة، فقد بلغ به الاستهتار أن يشيل ملابس نسائية داخلية تخص غيرها في جيوبه.

انفجرت في وجهه وهو عائد يتطوَّح في الثانية صباحًا، والحق أن صوتها لم يعلُ ليسمع الجيران، لكنها أنذرته بالفضيحة لو لم يعد إليها وإلى بيته مستقيمًا تائبًا

بعد أن أفاق من سكره بكى عماد كثيرًا بين يديها، استعطفها ألا تفضحه وألاَّ تتركه، قال إنه لا يستطيع أن يقطع علاقته بالبنت،

ولا يستطيع أن يترك زوجته وأم أولاده، اعتذر ومرْمَغ أنفه تحت قدميها ذات الكعبين المتشقِّقين.

قالت له إنها مصدومة في حبيب عاشت له وأب وزوج كانت تراه مثالاً للرجل المحترم العاقل.

قال لها إنها السبب وأن ما تحرمه منه وجده لدى أخرى.

كبرياؤها كان يقع قطعة قطعة متناثرًا على أرضية الحجرة، ثم قامت لتنام في حجرة البنتين وتركته وهو استلم السرير ليفرد جثته عليه. بعدها خرجت إلى الحمَّام أكثر من مرة لتتبول حتى أنها شكَّت أن يكون أصابها السكر على أثر الزعل، كما حكت لي المقدِّسة تريز والدتها، مرَّت على حجرة النوم ونظرت إليه فوجدته وقد راح في نوم عميق، بدا وجهه كطفل مطمئن عرفت أمه بعملته فلم يعد يخشى افتضاح أمره. ينام عماد قرير العين، لا يخشى أن تأتيه ضربة أذى أو حتى قرصة أذن من كريستين، فهو يعلم كم تحبه، ويعلم كم هي طيبة ومسالمة، قد تؤذي نفسها ولا تؤذيه، وربما كان هذا هو ما دفعه لخيانتها بكل تلك الجرأة والاستهتار والطيش. قال يا فرعون مين فرعنك؟ قال مالقيتش حد يلمني. ويعود بعدها عماد لينغمس في الخيانة مرَّات ومرَّات، بلا أيَّة محاولة لإصلاح حاله أو إصغاء لنصائح الأهل والأصدقاء، أصبح يفعلها عيني عينك لا خوف ولا مدارة.

ليالٍ طويلة من الوحدة والأسى قضتها كريستين قبل أن تقرِّر اللجوء إلى الطلاق، سنوات طويلة ضاعت من عمرها بين طرقات

المحاكم ومكاتب المحامين، لكن الأمر شبه مستحيل؛ الكنيسة تصعِّب الأمر والطلاق أسهل منه الموت، وهي لن تلجأ إلى اتهامه بالزنا.

ماحدث ذات يوم أن الجميع صحا على خبر وفاة كريستين، لا أحد يعلم إذا كانت ماتت مقهورة بعد أن هدَّدها عماد باستعادتها عنوة إلى بيته أم ماتت لأنها كرهت الحياة وزهدتها، فصعدت إلى الله علَّها تجد العدل في مكان آخر، المهم أنها ماتت يا ولداه وارتاحت، لكن الذي لم يرتح، ولن يرتاح بقية عمره هو الموكوس عماد كما تسمِّيه أم عزة، لا يعلم أحد من أين طلع له الضمير على كبر، فيقولون إن ضميره يعذِّبه ويؤنِّبه ليل نهار بذنب كرسيتين، ويقولون إنه زهد النساء جميعًا، وأنه يزور قبرها يوميًا.

ترى أم عزة أن كريستين كانت أوْلَى بكل هذه الدموع في حياتها، كانت أحوج لكلمة حنونة، وحضن زوج مخلص ووردة واحدة من تلك الباقات التي يطلع بها القرافة عليها

تسرح ونسة في كلام أم عزة، تفكر في زوج حنون مخلص، تخشى أن تتزوج من رجل وتنجب منه ثم يخونها أو يطلقها تشرد في أهمية حضن رجل دافئ في ليلة شتاءٍ كتلك تقول لنفسها : ربما كان هناك رجال أوفى وأكثر إخلاصًا ومودة من عماد جارهم تطمئنها أم عزة :لا؛ صوابعك مش زي بعضها.

- تعرفي ياونسة؟
- نعم يا أم عزة
- فيه ر جَّالة مايملاش عينهم غير التراب.

وتنسج أم عزة خيوط حكاية جديدة مع كوب شاي جديد سادة تصبُّه لها ونسة، وتنصت ونسة لحكاياها حتى تتثاءب وهـــــــي تســـــــألها:

- هيه وبعدين ؟

- ولا قبلين، أسيبك بقى دلوقت أنا قرَّبت أنام على روحي.

***

الفصل الثالث

اليوم الذي شعرت فيه ونسة أن رجلاً يفكِّر بها كان العجوز محمود صاحب محل خردوات بشارعنا الكبير، محمود لم يكن رجلاً ستينيًا عاديًا فقد اكتسب محبة الجميع وثقتهم لأنه تاجر أمين واسع الصدر مع زبائنه، لا يبالغ في المكسب، ولا يطلب من الدنيا إلا القليل، توفَّت زوجته ولم ينجب.

لم يكن محمود ينظر إلى تفاصيل جسدها تلك النظرة الجارحة التي تكرهها، وهي كانت تناديه عم محمود؛الكلمة التي كانت تلقى قبولاً منه رغم أنها تشعره بفارق السن بينهما.

اقترب منها ذات يوم قائلاً:ست البنات ترضي تتجوزيني؟ وبلاش عم محمود دي قول لي يا حودة.

ضحكت ونسة وهي تظنه يمزح كعادته، لكنه أمسك بيدها فجأة وقبَّلها قبلة حانية احمرَّت لها وجنتاها، فسحبت يدها بسرعة، وراحت تنظر يمنة ويسرة إلى الشارع الذي كان خاليًا في ساعة العصاري، وجرت من أمامه كالمجذوبة وهي تردِّد بينها وبين نفسها عم محمود طب ازاي؟

الرجل لم يكن متبجحاً كأبي هدير، وطلب الحلال منها مباشرة، ولكن كيف وهي بنت بنوت لم تتخطَ الثانية والثلاثين بعد وماذا عن أحلامها بشاب وسيم أو حتى نصف وسيم؟

محمود لم يتأخر في الخطوة الأولى؛ راح وكلِّم أخاها الأكبر، لكن طلبه قوبل بالرفض القاطع من الدكتور سليم، حتى دون أن يسأل ونسة رأيها، والحق أن البنت لم تكن لتوافق لكنها فقط كانت تريد أن تشعر بما تشعر به البنات حين يسألوهن عن رأيهن في العريس الذي جاء بقدميه خاطبًا.

سليم بخل عليها حتى أن تمرَّ بهذه التجربة.

بكت ليلتها طويلاً لم تكن تعلم لماذا تبكي؛أهي صدمتها في عريس جاء بعد طول انتظار فإذا به عجوز أرمل؟ أم لأن أخاها لم يسألها رأيها في العريس ورفضه من "برَّه برَّه"؟

قالت لها الكونتيسة:ولا يهمك "لسه كيَّالك مجاش يا بت"، ونصحتها طويلاً أن تهذِّب حواجبها، وتنتف شعر وجهها، لكي تبرق وتصير حلوة الطلَّة، لكن ونسة كانت تحب شكلها كما هو، خلقة ربنا، تقول بعلو صوتها أنا حلوة غصب عن عين التخين، لكنها في قرارة نفسها كانت تحاول أن تغطِّي بئرًا عميقًا بلا قرار، تشعر أن حظها من الجمال قليل، وقد باءت كل محاولاتها كأنثى في طور المراهقة بالفشل في تحسين شكلها، بل إنها وجدت سخرية من أخوتها ونهيًا من أبيها، يردد بحسم: إيه لزوم قص الشعر؟ وليه المكياج؟ والوقفة قدَّام المراية ؟ والكعب العالي هايقوس ضهرك والفستان القصير قلة أدب، والبنطلون الجينز استرجال، وإيه ده انت عاملة حواجبك؟

* * *

وتروح نهارات وتجئ ليالٍ ومازالت ونسة تعيش معنا في شقتها ترعانا ونرعاها، تسقي زهور الياسمين في بلكونتها وتجلس في ساعات الصفا على جهاز الكمبيوتر الصغير الذي اشترته لتبدأ أخيرًا في التعرف على هذا العالم الجديد الغامض؛ الإنترنت؛تبحث على جوجل عن صور مهنَّد لتخزِّن على جهازها أكبر عدد من الصور له، وتقارن بينه وبين إبراهيم باشا والسلطان سليمان أبطال مسلسل آخر وتهمس بشقاوة: ما الحب إلا للحبيب الأول.

في يوم زارتها صديقتها إيمان زميلة الدراسة التي أكملت والتحقت بكلية التجارة، دخلت معها على موقع الفيس بوك؛ أضافت لصداقتها كل من يضع صورًا لمهنَّد أما صفحتها الشخصية فلم تضع عليها صورًا لها، فقط وردة بنفسجية كبيرة وأسمت نفسها "غريبة منسية" فأصبحت تقرأ على صفحتها:غريبة منسية حدَّثت حالتها، غريبة منسية علَّقت على صورة لفلان، غريبة منسية ترغب في إضافتك إلخ إلخ.

العالم الجديد الذي انفتح أمامها قلَّل كثيرًا من حدِّتها وعصبيتها الناتجة عن الوحدة والفراغ، أصبحت تقضي ساعات طويلة تتصفح ما يكتبه الآخرون. صور وأمثال ونكت وحكم وقصص لطيفة، صفحات رومانسية وأخبار الفنانين ونصائح للفتاة المهذبة حتى لا تقع في شرك الخديعة.

أصبحت ونسة تهمل غذاءنا ورعايتنا بعض الشيء، شكوْنا لها كثيرًا من تغوُّل بعض الفئران كبيرة الحجم على صغارنا فيما يشبه

البلطجة عند بني آدم، للحصول على كم أكبر من الطعام، حاولت أن تهدِّئ الأمور بأن زادت كميات الطعام وقلَّلت من ساعات جلوسها على الكمبيوتر، لكننا كثيرًا ما كنا نحتاجها لتجالسنا وتحكي لنا وتنظِّم حياتنا كما اعتدنا، حفلات الزواج والميلاد والرقص والغناء معها.

لم يكن هناك حل سوى أن نتخلَّص من منافسنا في قلب ونسة، الخطة كانت بسيطة: ممّس وشادية ونعناع يقرضون سلك التليفون فينقطع النت وتحتاج أيامًا لتجد من يصلحه.

الحق أن البنت غضبت كثيرًا علينا، وهدَّدتنا أن تقطع رقبة من يفكر في قرقضة أي سلك في البيت، ونحن وعدناها أنها المرة الأخيرة فابتسمت وصدَّقتنا، لكننا كنا ننقض عهدنا معها كلما أردنا لفت نظرها إلينا، وهي كانت تدرك ذلك فنحن أبناؤها الذين لم تلدهم.

ذات مرة حكت لنا عن رجل يحاول التعرف عليها على الإنترنت، وأنه طلب منها أن ترسل له صورتها فاحتارت أيَّة صورة ترسلها إليه وخشت إن هو رأى صورتها أن يتوقف عن محادثتها.

وأخيرًا اهتدت لحل فأرسلت له صورة ابنة أخيها ذات السبعة عشر عامًا.

استمرت المحادثات الليلية بينهما، وعندما بدأ الرجل يطلب أشياء لم تبح لنا بها ونسة توقفت عن محادثته.

قالت لنا والبكاء يخنق صوتها:حتى ذلك الذي لم يرني ولا يعرفني لا يريد مني إلا جسدي الذي لا يدري تفاصيله، يارب ألا يوجد

رجـل ينظـر إلى قلـبي يلمـس بيـده أحاسيسـي، تربِّـت علـى كتفهـا وتحتضنها زبادي ثم تقول لها في صوت حكيم اصبري ياونسة لسه ابن الحـلال ماجـاش، روحـك وقلبـك الطيـب يسـتاهلوا أحسـن راجـل في الدنيا.

أما أجمل مغامرة قمنا بها مع ونسة فكانت نزهة ليلية في إحدى الحـدائق، فقـد وضـعتنا في صـندوق كبـير بـه فتحـات للتهويـة وكانـت تحملنا كهدية أوحقيبة بها محتويات هامة حتى جلسنا على النجيلة بـالقرب مـن شـاطئ النيـل بالمنيـل وقـت غـروب الشـمس، أخرجتنـا مـن الصـندوق لننتشـر بالحديقـة، نشـم رائحـة النيـل ونغيِّر جـو كمـا يقـول النـاس. وهـي كانـت تصـطحب كتابـاً رومانسـيًا مـن روايـات عبـير جلست تقرأ فيه لتروح في دنيا أخرى تبكي لحظة وتبتسم أخرى وتحلم بفتاها.

لم تكن ونسة رغم حنية قلبها عبيطة أو ساذجة، والوقائع تثبت ذلك وقد شهدتها بعيني.

ذات ليلـة جاءتهـا امـرأة خضـراء العينـين بيضـاء البشـرة، ترتـدي جلبابًا وطرحة رأس، معها طفل عمره سبع سنوات، وتحمل آخر على يـديها فتحـت لهـا ونسـة البـاب، وقالـت المـرأة أنهـا تعمـل في تنظيـف البيوت وتحتاج إلى عمل ورجت ونسة أن تجعلها تنظِّف شقتها.

تـردَّدت ونسـة قلـيلاً، رغـم أن المـرأة صـعبت عليهـا، لكنهـا استأذنتها قليلاً وجاءت تشاورنا هل تسمح لها بتنظيف الشقة من باب العطف والصدقة.

بعضنا تحمَّس للموضوع حتى ترتاح ونسة من مسئوليات التنظيف اليومي المرهق للشقة، لكن البعض حذَّرها من مغبَّة ذلك فقد تروح المرأة وتفتح فمها هنا وهناك حول ونسة التي تعيش مع الفئران وتلوك الألسنة سيرة ونسة الغلبانة وأخيرًا كان الصوت الأعلى للرفض، وتجاوبت ونسة مع رأينا وسحبت من درج التسريحة كيس نقودها لتخرج ثلاثين جنيهًا وتدسَّها في يد المرأة التي انصرفت بابنيها داعية شاكرة لونسة.

لكن دماغ ونسة لم تتوقف عن التفكير، أخذت تؤنِّب نفسها قائلة: جاءت المرأة تطلب عملاً فحوَّلتها إلى متسولة، يالقسوتي فليتولاها الله وتجد عملاً عند غيري.

زارتها المرأة بعد ذلك في المستشفى عندما علمت بمرضها ودعت لها بالشفاء طويلاً.

المهم قبل أن أنسى، دعوني أروي بقية حكايتنا مع ونسة فقد صار عددنا خمسين فأرًا، بدأت روائحنا تغزو شقق الجيران، فيرسلون صغارهم ليسألوا عن أشياء وهمية، علَّهم يعرفون سر الرائحة والجلبة في شقتنا، وحدها ونسة لم تكن تشكو من المشكلة.

ذات صباح خرج أحد صغارنا المتهوِّرين، ونطَّ في شقة مجاورة لونسة، وعلى الفور أعلنت حالة الطوارئ في الشقة وتم اصطياده.

بعدها بدأ الجيران يتهامسون حول ونسة وشقتها واشترك البقال معهم ليخبرهم بكمية اللانشون والجبن الرومي الذي تشتريه ونسة يوميًا وصاروا يتسائلون: من يأكل معها كل هذه الكمية؟

ذات ليلة سمعنا جرس الباب، فاختبأنا كالعادة، كانت أم هدير ومعها مجموعة من الجيران وصاحب العمارة، سألوا ونسة:إنت مربية حيوانات في الشقة؟

- حيوانات؟

- كلب، قطة، فئران بيضاء أو سوداء مثلاً؟

في البداية أنكرت، لكنهم واجهوها بما رآه أطفالهم وبما سمعه بعضهم من كلامها مع الفئران خلف الأبواب.

وأخيرًا اعترفت لهم بجرأة، وقالت:أنا حرة في بيتي.

حاولوا إقناعها بالتخلص منا، لكن بلا جدوى.

قد يشعر الإنسان بخطأ موقفه لكن يداهمه هجوم الجميع ضده بشكل مبالغ فيه دون أدنى تعاطف إنساني أو اهتمام حقيقي نابع من حرصهم عليه، ما يجعله يزداد تشبثًا بخطأه فهو هنا ضحية مسكينة يَسِن الجميع سكاكينهم لذبحها، رغم أن الخطأ بسيط ويمكن التغاضي عنه ومن منهم لا يخطئ؟

كان رأسها الناشف يزداد صلابة كلما نظرت إلى أفواههم تتسع بالدهشة والسخرية، وجلود وجوههم تتعرَّق بالعصبية الفارغة لمجرد أنها تربي كائنات لا يحبونها

تتساءل هل تدخلت يومًا فيما يحبه الآخرون؟ هل لأنني أكره القطط فمن حقي أن أمنعهم تربيتها؟

تتساءل ولا مجيب فالجمع قد اتخذ القرار نيابة عن صاحبة القرار الأولى وكثيراً ما يفعل الناس ذلك إعلاء لما يسمُّونه "المصلحة العامة".

وكانت النتيجة أن فوجئنا ذات صباح بأيادٍ غليظة تدق على الباب وتكاد تخلعه، ففتحت ونسة، وإذا بمجموعة من الرجال، يقتحمون المكان ويقومون برش مادة كريهة الرائحة، بعد أن وضعوا كمامات على أنوفهم، وأخرجوا ونسة مكتوفة الأيدي بعيدًا عن الشقة.

وهناك أمام باب البيت كانت صرخاتها تتعالى وسط ضجيج الناس والتفافهم.

وقفت تنادي علينا، فلا يرد أحد.

حملوها إلى منزل أختها ورأيتها وهي تنظر خلفها بعيون تملؤها التساؤلات والألم.

لم أرها بعد ذلك، فقط كنت أتسمَّع أخبارها من خلف الشبابيك: عرضوا الشقة للبيع بعد تطهيرها/لا أحد يريد شراء الشقة/ وضعوها في مصحة نفسية/تناولت مبيدًا حشريًا/ بصمت لأختها على توكيل بالبيع وهي على فراش المرض.

الخلاصة أنني لم أرَ يومًا طيبًا منذ فارقت بيت ونسة.

"ناولني حتة اللانشون دي، ربنا ما يوريك جوع ".........بلاش النظرة دي، دا كان أقل أكل بناكله، سمعت عن الكباب والكفتة؟

دُقت السمك المشوي ؟ شربت عمرك نسكافية؟

هيييه كانت أيام!

الفصل الرابع

شبح زبيدة الممرضة يطاردني في المنام، أصحو مذعورة، أتذكر وجهها البارد كسيراميك أرضية حجرتي.هي الوحيدة من بين الممرضات التي لم تكن تتعاطف معي، بل إنها كثيرًا ما لمحت إلى أنني مصابة بنوع من المرض النفسي الذي لا شفاء منه قبل أن تدِس الحقنة في ذراعي، ثم تشخط بصوتها

المتحشرج: نامي يا ونسة، كفاية رغي مش ناوية تنسي حكاية الفيران دي بقى؟

أحاول أن أنام وأتوقف عن الحكي لزميلاتي المريضات.

تعترض تهاني وأمل وحنان ويأتين إلى سريري ويهتفن: يالا اعملي فار، كمِّلي الحكاية.

كنت أدخل في شخصية الفأر "ممس" الذي لم ألمحه وقت هجوم موظفي الصحة على البيت وإبادة فئراني، لكن خياله لا يفارقني أشعر أنني أرتدي جلده ،أتحدَّث بصوته منذ جئت إلى المصحَّة.

أقضي النهار وأنا أحكي حكايتي مع الفئران على زميلاتي المريضات وعندما يقترب صوت زبيدة من حجرتي

أضع أصبعي على فمي محذرة :ششششششش زبيدة جاية

فيجرين كل إلى حجرتها وأبقى وحدي.

كنت قد قضيت أصعب ليلة في حياتي لأول مرة في مستشفى نفسي، عندما أفقت من تأثير المهدئات، وبدأت أستعيد وعيي صرخت بأعلى صوتي أستغيث بأصدقائي الفئران، كنت أردد أسماءهم بلا تلعثم ولا نسيان: زبادي بيبي دول، الواد الشقي، ألماظ، نوسة، نعناع، لمون، الواد الصايع، ممس، معجباني....

المصحَّة التي وضعوني بها كانت تليق بسمعة أخوتي لكني شعرت بالغصَّة في حلقي، رحت أفكر طويلاً إذا كنت فعلاً قد جننت لأني ربِّيت فئرانًا بيضاء وسوداء أم أنهم فقط يبالغون فيما وصلت إليه حالتي؟ أم أنهم هم المجانين؟

جاءتني نعمة تزورني في المستشفى، وأخبرتني أن القرشانتين تلحَّان على أخوي للإسراع في عرض الشقة للبيع، وأنهما تردِّدان أنها ستأتي بما لا يقل عن مليون جنيه هم وأولادهم أوْلى بها وسيظل حق ونسة محفوظًا في رقبتهما إلى أن يأتي ابن الحلال ويتم تجهيزها بهذا المبلغ.

أسمع وأضحك ساخرة، أي ابن حلال؟أي عريس ذلك الذي سيأتي لمثلي؟ سأظل حبيسة هنا حتى أموت ويخلصون مني.

أكثر من مرة حاولت أن أتخلص من حياتي.

عنابر المستشفى، روائح المطهرات، والبلاط النظيف ووجوه المرضى البائسة الذاهلة كل ذلك يلتف حولي، يكاد يقتلني.

الصداقات القليلة التي شرعت في إقامتها في المستشفى مع مريضات في نفس سني لم تكن تستمر طويلاً، فقد كن يخرجن بعد أن تخف حدة المرض، وأبقى أنا بحجرتي وحدي، يروح الوقت ويجيء،

ولا أعلم كم شهر مرَّعليّ في معتقلي المشبَّع بالديتول والمطهرات الأخرى التي لا أعرف لها اسمًا.

تتوالى الممرضات على رعايتي للحقن وإعطائي حبوب لا أعلم عنها شيئا، الأطباء يقولون أني تحسَّنت وأنا أنظر في مرآتي فلا أجد نفسي، أحيانًا أجد الصورة ممحوة وأحيانًا أجد نفسي فتاة أخرى جميلة رقيقة أنيقة مبتسمة دومًا وأحيانًا ثالثة أجد نفسي صغيرة وحيدة منبوذة لا أحد ألعب معه من عيال الشارع.

أسرح طويلاً مستعيدة أيامي مع الفئران، ثم تنتابني حالات من الهياج المفاجئ تستدعي أن آخذ حقنة مهدِّئة لأنام.

تهتاج مشاعري حين أستيقظ ليلاً وحدي في الغرفة فلا أجد مهنَّد هنا لألجأ إلى حضنه أثناء المسلسل، فمشاهدة التلفزيون تتم بشكل جماعي في صالة مخصَّصة لذلك.

في عتمة حجرتي أطلق العنان لخيالي، استبدل الطبيب شريف الذي يتابع علاجي بمهنَّد، بالطبع ليس له مذاق مهند الذي أعشقه لكن لا بأس الموجود يسد.

جاءت أم عزة في بداية دخولي المستشفى لزيارتي ومعها الكثير من الفاكهة والحلويات وكم كنت أشتاق لحضنها الدافئ برائحة اللافندر التي تغرق بها ملابسها، جلست بجواري وأنا ممدَّدة في سريري تحدِّثني عن أخبار الشارع والجيران، وعندما سألتها عن الفئران حاولت التهرب مني، وراحت تسلك دروبًا أخرى من حكاوي زبائنها ومشاكلها معهن، وتعرج على حكايات الراقصات في الزمن الفائت،

ولكني لم أستطع أن أصغي لكل ذلك، إذ قاطعتها بحسم متسائلة: هي الفيران كلها ماتت؟

جاءني الرد صريحًا لكنه ملفوف بالشفقة بكلام من قبيل كلنا نفقد أعزائنا، فالفلاح في غيطه لا يستطيع الاستغناء عن الجاموسة، وفقدانها يُعد فقدان لأحد أفراد الأسرة، ولكنه يتحمل حزن الفقد والخسارة، والهانم التي تربي كلبًا تحزن يوم موته، وتقيم له مأتمًا، لكنها بعد أيام تشتري غيره.

أسمعها وأنا شاردة، ثم أرد: مش هاقدر أعيش من غيرهم لما أخرج من هنا.

أشرح لها كم أنا وحيدة، وكم كانوا أشقائي وأبنائي وأصدقائي.

تطبطب عليّ قائلة: وحيدة ؟وأنا رحت فين؟ أنا في ضهرك يابت و معاكي.

أنظر إليها غير مصدِّقة ومشفقة لاضطرارها أن تكذب لكي تواسيني وتطمئني.

فترد على نظراتي المتشكِّكة: لا يا ونسة وكتاب الله لا بجاملك ولا بأكدب عليك ولا هو كلام فض مجالس.

تعيش أم عزة وحدها بعد أن تزوجت بناتها الثلاث، إحداهن تعيش مع زوجها في الشرقية، ولا تأتي لزيارتها إلا في الأعياد والأخرتان سافرتا إلى الخليج مع زوجيهما، ولذلك انتقلت من كرداسة إلى السيدة زينب، لتجاور الست، وتعيش في مكان شعبي مزدحم.

أسألها بتردُّد : يعني تقدري تعيشي في شقتي بدل شقتك

تقترب مني وتحتضني، فادفن رأسي في صدرها، أرتاح لدرجة النعاس لكنني أفيق على ضحكتها وهي تقول : اسمعي الول حكايتي أنا وبناتي.

أشجِّعها على الحديث، فنحن حقًّا صديقتان منذ ما يقارب العامين، لكني طالما سمعت منها حكايات الأخريات ولم أسألها أبدًا عن حكايتها مع "أبو عزة"، ومَن هي عزة التي تُكنَّى باسمها رغم أنه لا يوجد مَن تُسمَّى عزة بين بناتها.

تحكي لي الكونتيسة أم عزة أنها كانت في شبابها جميلة، وأنها نشأت في منطقة كرداسة، وطالما تمناها أحسن الشباب وأجدع الرجال، لكن قلبها لم يدق سوى لإسماعيل.

تقول أم عزة وهي تبلع بق البيبسي الأخير في العلبة أنها حين رأته لأول مرة كان فتى وسيماً ألقت به تقلبات الأيام إلى بحر الشقاء والفقر، عزيز قوم ذل جاء مع والدته ابنة الحسب والنسب التي يمتد سلسالها إلى باشوات ما قبل يوليو، والتي عاشت على آثار سنوات العز بضع سنوات، حتى استشهد زوجها في حرب ٦٧، وغدرت الأيام ببنت الحسب والنسب التي تتحدث أربعة لغات.

لم يكن معاش القوات المسلحة يكفيها هي وابنها فحاولت أن تعمل لكن الوظائف تخنق مثيلاتها ممن اعتدن الحرية وإعطاء الأوامر لا تلقيها، غادرت القاهرة إلى كرداسة، تلك البلدة الصغيرة في أطراف الجيزة، وبدلاً من الفيلا الفخمة ثم الشقة الأقل فخامة بالقاهرة،

سكنت فريدة هانم شقة بسيطة في كرداسة، فأصبحت جارة لعائلة أم عزة المسمَّاة وقتها "أمورة".

ولأن فريدة هانم كان لابد أن تجد عملاً مناسبًا لها، فقد قرَّرت أن تستغل موهبتها في تصميم الأزياء، ولكنه نوع خاص من الأزياء، فقد استهوتها بدل الرقص الشرقي تلك الهواية التي دفعت بها إلى شارع محمد علي، كي تتعلم أصول التصميم والتنفيذ على أيدي واحدة من الأسطوات المعدودات في مصر.

إسماعيل الذي قضى عامين بكلية التجارة ومثلهما بالآداب، صمَّم ألاَّ يكمل تعليمه، فقد كان ابن أمه يكره أن يلتزم بأي شيء، لم يعتد أن يتقيد بشخص أو مكان أو طقس أو عادة يومية، لم تستطع والدته إلا أن تعلمه مهنتها الجديدة، ولحسن حظه لاقت قبولاً لديه، إذ غازلت "الحتة الفنية" عنده والتي كثيرًا ما راغت منه، ولم يكن يلمسها.

كان يهرب من المدرسة ليرتاد السينما، ويحفظ حوارات الأفلام العربية القديمة عن ظهر قلب، يهيم عشقًا بنجمات السينما وفاتنات الرقص الشرقي.

بسهولة شرب الصنعة وأتقنها، كان يتفنن في تنفيذ رداء ينسدل على جسد راقصة، يذيب به قلوب المعجبين وينتزع تصفيقهم.

السر في البدلة هكذا كان يردد دائما ألم يقل المثل لبس البوصة تبقى عروسة؟ فما بال لو كان هو مسئولاً عن إلباس صاحبات الجسد

الطري اللدن الذي تهبه الموسيقى حركات تبرز استدارات وانحناءات فوق استداراته وانحناءاته؟

ذاعت سمعته في الوسط الفني، وحين عشقته إحداهن ولم يستطع أن يلبِّي رغبتها في الرفق لأنه يخشى الله أهالت على سمعته التراب، وتراجع مشروعه كترزي شهير للراقصات بعد عدة شائعات أطلقتها ضده، وبعد أن استعانت بمالها بأكثر من ترزي منافس ونجمتهم لتسحب منه شهرته، انحسرت عنه الأضواء لكنه ظل يعمل في تلك المنطقة الوسطى بين الشهرة والتميز وأكل العيش.

تحكي أم عزة إنها لفتت نظره "بأنوثتها المتفجِّرة، بخجلها وأحلامها البسيطة، وجدعنتها.

ووسط فرحة ومباركة العائلتين اقترن بها اسماعيل فقد رحَّبت أسرتها بابن الحسب والنسب، ورحَّبت فريدة هانم بزواج واستقرار ابنها المدلَّل وعاشت مع إسماعيل في حب اقترن بحلاوة الكفاح من أجل لقمة العيش، أنجبت منه ثلاث بنات، لكن تأخر قدوم أولهن خمس سنوات. لم تشعر أبداً بلهفته على الإنجاب فقد كان يعاملها كطفلة

مدلَّلة، حتى إنه قرَّر أن يشترى لها قطة تسلِّيها إلى أن يمنحهما الله الذرية وسمَّاها عزة، وأصبح يناديها الكونتيسة أم عزة، وأصبح هو أبو عزة تأثراً بصلاح السعدني في مسرحية الملك هو الملك.

لم ينسَ أبو عزة ميوله الفنية يوماً، بل إنه اتجه في فترة لكتابة الروايات والقصص، ومنها قصة فيلم مثله نور الشريف تسألني أم عزة بفخر: سمعتي يا ونسة عن فيلم اسمه أقوى الرجال بطولة نور الشريف؟

.وقبل أن أجيب تواصل أم عزة لتحكي أن الفيلم من تأليف زوجها أبو عزة وقد سرقه المخرج منه عن طريق ريجسير أوهمه بأنه سيشتريه منه ولم يستطع أبو عزة إثبات حقه فلم يكن لديه نسخة من القصة ولم يسجلها في الشهر العقاري كما كان يجب أن يفعل. كان طيبًا،سليم النيَّة لا يعمل حسابًا لغدر الناس ولؤمهم.

لم يكن يؤرقها إلا ميله الشديد للتبذير، وعدم مقدرته على أن يحسب حساب المستقبل، دلَّل البنات فكان يلبِّي لهن كل مطالبهن، ينفق ببذخ لآخر مليم معه، وإذا أفلس راح يغني ويرقص مع بناته ومعها.

كانت تضحك عندما تتغامز النسوة من الجيران والأقارب والمعارف:"مجـــانين" ؛معـــاهم فلـــوس؛ فرحـــانين ويرقصـــوا. مفلسين؛مبسوطين ويغنوا.

طالما حذَّرتها النسوة من اختلاطه بالراقصات، وأنه ربما يهرب مع إحداهن، لكنها لم تشعر أبدًا بالغيرة، وكيف تغار وهو يشعرها دائمًا بأنها الملكة المتوَّجة على عرش بيته وقلبه ومالكة مفاتيح الرغبة في جسده؟

شربت منه صنعة تفصيل بدل الرقص، شاركته الاختلاط بالراقصات، تعاطفت مع حكايات بعضهن بل وبكت واحتضنت أخريات، ونظرت بحسد لبعضهن ممن احترن المهنة عن هواية دون ضغط من حاجة أو ظروف اجتماعية قاسية.

وكما ظهرإسماعيل في حياتها فجأة، اختفى فجأة، توفاه الله دون مرض أو صرخة ألم.

ففي ذلك اليوم كما تحكي ودموعها في عينيها استيقظ وصبَّح عليها، ثم قبَّلها في فمها واتجه للحمَّام، في دقائق كانت قد ارتدت قميص نومها الأسود القصير الذي كان يموت على جسدها الملفوف بداخله، أما هو فاغتسل وعاد إلى السرير مرة أخرى، نادته وهي تضع الروج على شفتيها فلم يرد، راحت تقلِّب في جسده وتحاول إيقاظه، وحين اكتشفت أنه فارق الحياة سقطت مغشيًا عليها، وأفاقت بعد ذلك على صراخ بناتها وولولتهن فأخذتهن في حضنها ونظرت إلى صورته المعلَّقة على الحائط، وتذكَّرت أن الحزن كان عدوه الأول، وأنه جاءها في غيبوبتها القصيرة لينام معها ويكمل مابدأه في الصباح قبل أن تفارق روحه جسده وهمس في أذنها وهو يحتضنها كوني قوية يا امرأة.

قالت للبنات:" لو سِمعت واحدة فيكم بتصرخ ولاَّ بتعيَّط حتى هاكسر ضبَّها بمقص الخياطة"

في تلك الليلة بتْنَ في حضن الحزن و الألم والفقد، ورغم عدم مقدرتهن على الضحك والابتسام إلا أن كلمات الأم أسبغت عليهن هدوءًا، وجعلت آيات القرآن التي لم تكن تغيب عن البيت مهمتها سهلة.

حين فرغت من حكايتها كنت أمسح دموعي تأثرًا، فرقعت ضحكة مجلجلة قائلة: "يابت أنا باحكيلك عشان تعرفي قد إيه الدنيا

بتدي وتاخد وقد إيه تعبت لحد ما ربِّيت البنات من بعده، الحمد لله كبروا واتجوزوا وأنا باشتغل دلوقت لمزاجي، عشان مااعجزش من القعدة لوحدي، ولاَّ الشيطان ياكل بعقلي حلاوة.

انصرفت أم عزة وتركتني على وعد أن تأتي يومًا بعد يوم لزيارتي، ثم تستقر معي في شقتي حين أخرج من المستشفى..

العلاج الذي كنت أتناوله في المستشفى يشبه علاج منع القيء، فكما تكتم حبة من شريط صغير رغبتك في القيء وتمنع خروج الطعام إلى الفم فيما تشعر بمحاولات هروبه إلى زورك، كذلك يفعل علاج الاكتئاب في بدايته، إحساس غير مريح ولا موجع، أشعر أني بحاجة للبكاء الشديد على فئراني، على حياتي الضائعة أريد أن ألطم، أصرخ، لكن هناك ما يهدِّئني رغمًا عني، هناك ما يحوش الألم بداخلي، ويحاول إعادته إلى نقطة بعيييييييييدة.

عندما مرَّ عليّ خمسة أشهر في المصحَّة، وبدأت أتعافى وأقترب من الشفاء تعرَّفت على سماح وأمها أمال؛ كانت سماح التي تخطَّت الثلاثين شبه مرافقة لأمها المريضة بالزهايمر، تزورها يوميًا تجلس بجوارها فقط لتلبِّي حاجتها للماء أو تناول الطعام، ولتأتي بالممرضات ليغيِّرن لها الحفَّاضات، فهي قعيدة الفراش منذ خمس سنوات، أتوا بها إلى المصحَّة بعد أن تدهورت حالتها.

الأطباء قالوا إن لا علاج لها، أبناؤها يعتبرون الأمر مجرد تغيير جو علَّها ترتاح قليلاً، فالمكان أفضل من دار للمسنين قد لا يقدِّر من فيه ظروف مرضها.

روت سماح لي حكايات عجيبة عن أسرتها وعن أمها؛ فالأم وكما يبدو حتى في سنها المتقدم هذا كانت فاتنة في شبابها، توفى زوجها ومازالت في الثلاثين، كان يعمل في تجارة الأخشاب، لديه مغلق خشب بالمرج لكن أهله يأكلون مال النبي، كان يكبرها بسنوات تتعدَّى العشر، لم تكن تستطيع أن تثني له كلمة، كثيرًا ما حاولت تحذيره من رغبات إخوته وطمعهم فيه واستكثارهم الرزق عليه، لكنه كان سليم النيَّة محبًا لإخوته.

توفى الأب فجأة بأزمة قلبية، فيما كانت كل أمور المغلق في يد أخوته. أبناؤه الأطفال وقتها محمد ورضوى وسماح لا يدركون شيئًا عن الحياة حولهم، محمد في الإعدادية ورضوى في سادسة ابتدائي وسماح الصغرى في خامسة.

تروي سماح أن أعمامها استحلُّوا أموالهم، ورموا لهم بالقليل بعد أن باعوا المغلق مدَّعين الخسارة وتراكم الديون.

انقهرت الأم، لم تستطع إثبات شيء ضدهم، أصبح عليها نزول بحر الحياة وحدها، عملت في مهن كثيرة؛ سكرتيرة، بائعة في محل، طبَّاخة، مديرة منزل، صنايعية في مشغل، أو كوافير، بائعة في محلات أطعمة، عاملة في مصنع. كانت تدبِّر اليوم بيومه لتربيهم، أطول مدة قضتها في عملها كانت ستة شهور. فلأنها جميلة، ذات جسد لا تخطئه شهوة رجل كانت دائمًا محل رغبة في الاصطياد، إن لم يكن في الحرام، ففي الحلال السري الذي لا يفرق كثيرًا بالنسبة لها.

وتحكي سماح عن أمها التي لم تكن معدومة الرغبة أو الأحاسيس، فرغم صغر سنها كانت تراها أحيانًا تتأمل نفسها في المرآة متحسرة على جمالها الذي يذبل ولا يد ترعاه، ولا كلمة حلوة تسمعها خارجة من قلب رجل حقيقي غير طامع.

تتكوَّر في سريرها ليلاً بعد أن ينام أطفالها، تكلِّم نفسها قائلة: همشي جنب الحيط لا "جوَّه" الحيط عشان ولادي، تكرر لنفسها أنها لن تسمح لأحد بأخذها منهم أو تلويث صورتها في نظرهم، لن تسلِّم قلبها ولا جسدها لأحد، لن تدخل رجلاً على أولادها حتى لو كان أحد أعمامهم.

الأعمام راحوا يتعازمون للزواج بها، فيما تأتيها رسائل التهديد والوعيد من زوجاتهم القادرات اللاتي رحن يدبِّرن الأمور حتى يبتعدن بأزواجهن تمامًا عنها وعن أولادها.

تهمس لنفسها: يارب انت خلقتني جميلة ودي لعنة على نفسي وعلى ولادي ثم تستغفر ربها وتنام.

كانت تذهب إلى عملها نهارًا، وتسهر ليلاً تفكر في كيفية استمرارها في العمل تحت ضغوط نظرات من تعمل معهم، أنهم ينزعون عنها ملابسها قطعة قطعة بعيونهم الجائعة، يلتهمون العسل السائل من شفتيها حين تتكلم، يمضغونها بأفواههم، ويضعونها بين فخوذهم المشعرة ليلاً.

تبيت متقلبة في فراشها وحيدة، ويبيتون يدبِّرون الخطط للإيقاع بالأرملة الجميلة، تهب رياح اشتهائهم لها على دارها فلا تجد إلا

الصد، فهناك في قاع قلبها بئر مفتوح لكل بهجة أو اشتهاء تشعر بهما تجاه رجل.

ظلت تناور قلبها وجسدها وتخطف لقمة العيش من فم الأسد عشر سنوات.

ودائمًا ما تقطع طلبات أم سماح الحكاية التي ترويها سماح، فأنظر مشدوهة لأم سماح ذات الستين، وقد تهدَّلت خدودها، وقصُّوا لها شعرها الذي لا يخلو من نعومة وجمال رغم العجز والشيب، عيناها زائغتان ولسانها ثقيل، لا تنطق إلا بكلمة أو اثنتين، ليس لديها سوى الصراخ لتطلب ما تريد.

حين وصلت لسن الأربعين بدأت تنتابها أعراض التوهان، والانفصال التام عمَّا يدور حولها على فترات متقطعة.

كانت سماح تعود من الجامعة فتجد رائحة الشياط تملأ البيت، تجري إلى المطبخ لتطفئ الموقد على الطبيخ الذي نسيته أمها وقد التصق بقاع الحلة مكوِّنًا سواداً ورائحة خانقة، تعتذر الأم لابنتها وتبكي وتقوم لتنقذ وجبة الغذاء فلا تستطيع.

في اليوم التالي تتكرر الحكاية، تبدأ سماح وأختها في التهامس حول حالة الأم، تدخل عليهم في حجرتهم فيصمتون، يعرضونها على طبيب فينصحهم بعرضها على طبيب مخ وأعصاب، وينتهي التشخيص إلى أنها مصابة بالزهايمر، ويقول الأطباء إن الحالة النفسية والصراعات الحادة التي تعرَّضت لها بعد ترملها هي أحد أسباب تفاقم المرض والإصابة به مبكرًا بجانب استعدادها الوراثي.

في بداية المرض كانت تخرج ليلاً أو نهارًا، تجوب الشوارع بلا هدف، تجري سماح هنا وهناك بحثًا عنها، تهمل دراستها في الجامعة وتنسى مواعيد محاضراتها، تترك شعيرات وجهها بلا تنظيف، تشد البنطلون الجينز والـ "تي شيرت" لتخرج عائدة بأمها إلى البيت.

تحكي سماح عن خمس سنوات من التوهان والذهول والبحث عن لا شيء، ربما كانت تبحث عن قلبها وعقلها لتصالحهما على جسدها، ربما كان عقلها يرفض ما فعلته بنفسها حين دفنت أنوثتها، ورغباتها في قاع أسود طاله الصدأ وأكلته الوحدة.

رآها بعضهم تتعرَّى كاشفة صدرها في عرض الطريق، وعندما أخبروا سماح وإخوتها جرت سماح واحتضنتها، ولفَّتها بشال كبير وهي تبكي، فيما كانت الأم تنظر إليها ببلاهة وهي تضحك قائلة: الشال ده بعتهولي أنهي عريس فيهم؟ يابت قلت لك أنا مش عايزة الحلاوة، على إيه أشد شعر جلدي، وأنعَّم جسمي، أنا بنات لوحدي مفيش حد أنعَّم له جسمي ياولداه.

تحاول سماح إسكاتها بلطف، والجيران يمصمصون شفاههم ويدعون لها بالشفاء.

حين لجأ الأبناء لطبيب أعصاب لكي يعطيها حقنة مهدِّئة ليتمكنوا من النوم قليلاً باطمئنان، وصف الطبيب حقنة قال إن مفعولها يستمر ثلاث ساعات، لكنها منذ عشر سنوات وهي طريحة الفراش لا تغادره صارت تنام كثيرًا، ولا تنطق وضعف بصرها، رغم

خطأ الطبيب في وصف الحقنة التي جلبت لها العجز إلا أنهم سكتوا جميعًا، فقد أصبحوا يستطيعون النوم بعد أن صارت قعيدة.

***

في اليوم الأول لخروجي من المستشفى كان إخوتي قد أعدُّوا كل شيء، الشقة تم عرضها للبيع بعد وصلات طويلة من الزن على الآذان الذي يشبه السحر من زوجاتهم.

فوجئت وأنا أدخل العمارة أن ورقة قد تدَّلت بحبل من بلكونتنا وقد كتب عليها شقة للبيع ورقم تليفون أخي الأكبر إبراهيم.

نظرت إلى إبراهيم معاتبة، لكني ابتلعت كلامًا كان صعبًا أن يخرج على لساني....إبراهيم فهم المقصود، وبمجرد دخولنا الشقة راح يسحب الورقة المدلاة من البلكونة، فيما رحت أتلمَّس حياة كانت هنا نابضة منذ أشهر قبل أن يأتي موظفو الصحة لإبادة الفئران.

رحت أفتِّش تحت السرير، وخلف الكنب، والكراسي، وفي المطبخ، والحمَّام، لكن بلا جدوى.

الشقة التي كان قد تم تنظيفها تمامًا لم تكن تشي بوجود أيَّة روح غير آدمية، جلست أبتلع مرارتي بعد أن خلعت طرحة رأسي.

سألني إبراهيم أن أتناول معه عشاءً، فمادمت قد صمَّمت ألاَّ أذهب إلى بيت أحدهم، فلنتعشَ سويًا قبل أن يتركني، أشرت له بيدي أن لا، ثم رحت أنظر لنفسي في المرآة..

من الصالة أتاني صوت إبراهيم وقد أعدَّ كوبين من الشاي وهو يقول :اوعي تزعلي ياونسة بالله عليك، انسي موضوع عرض الشقة للبيع، المهم صحتك وسلامتك، وراحتك.

ثم راح يقسم ويؤكد لي أنني مادمت لا أريد البقاء في بيت أحدهم فلتلغَ فكرة بيع الشقة، وأن بيت أبوينا سيظل مفتوحًا ولن يباع.

في تلك الأثناء كنت قد دخلت السرير ورحت في النوم بعد أن ابتلعت الدواء المهدِّئ الذي أوصى به الطبيب قبل مغادرتي المستشفى.

خرج إبراهيم وتركني نائمة أحلم بفئراني حيث كان صباحًا مزهرًا والشقة مليئة بالورود، والفئران حولي في كامل زينتهم نرش فقاعات المياه بالصابون على بعضنا البعض، ويحاولون أن يفيقوني من نومي وأنا بين الدلع والوخم. أحاول أن أصحو، لكن فجأة تختفي الفئران من أمامي، ولا يبقى إلا جدران الشقة وأثاثها.

أفيق من الحلم بريق ناشف، أبحث عن زجاجة مياة مثلَّجة فأجد الثلاجة فارغة رغم أنها شغَّالة، ألعن: ولاد الكلب ماهانش عليهم يتلِّجوا شوية مية.

أعرف أن أسماء ومروة جاءتا للتنظيف مرغمتين لإرضاء زوجيهما، لكن كان لابد أن تتركا بصمة من قلَّة الذوق وعدم الاعتناء الحقيقي.

أشرب من مياه الحنفية وأنا أتذكر ما كان بيني وبينهم في أول لقاء، ثم أبكي لفقدهم وتوحشني أيامهم فأجلس لأكتب مذكراتي:

رجعت النهارده من المستشفى وهاحاول أبدأ حياة جديدة مش لازم حد يشمت في، ولا يضحك علي، أنا مش مجنونة مش مجنونة، أنا كمان مش مريضة نفسيًا أو حتى عندي عُقد أنا طبيعية جدًا، مش عارفة إيه المشكلة إني ربِّيت فيران؟

أنا مالقتش وَنَس ولا وِد غير معاهم.

اللوم عليا ولاَّ على اللي حواليا؟ أنا محدش علمني أكدب أو أنافق، يمكن إخواتي الولاد اتعلموا الحاجات دي برَّه البيت، عشان خرجوا ولفُّوا وسافروا هنا وهناك.

"أنا رجعت تاني وحيدة من غير أصحابي الفيران، ومفيش قدَّامي غير إني ياإما أرجع أربِّي فيران تاني، وأرجَّع ذكرياتي الحلوة معاهم، يا إما أرجع أقعد قدَّام المسلسلات التركي، ياإما أحاول أغيَّر نفسي شوية، وأهتم بشكلي يمكن أتجوَّز، وأخلِّف أولاد يغنوني عن الهم ده كله ويونِّسوني."

أقوم لأنظر لنفسي في المرآة حيث تطل شعرة بيضاء بلا حياء في مفرق الرأس، إنه الشيب المبكِّر الذي ورثته عن أمي وجدتي، بينما ورث أخواي الصلع عن الأب.

أحمد الله فقضاء أخف من آخر، أزيح شعري للخلف وألمه ثم أفرِد بشرتي بيدي، وأتصفح كتالوج المكياج الذي تركته لدي سلمى جارتي قبل أن يدخلوني إلى المستشفى.

أفتح الراديو لأستمع إلى برامج خفيفة من تليفوني، فيصافح أذني صوت طبيبة نفسية شهيرة استضافها البرنامج تقول: لابد أن تصالح المرأة نفسها وأن تتصالح مع جسدها، هناك كثير من النساء السمينات سعيدات، ولا يرغبن في النحافة، وهناك من يتعذَّبن إذا زاد وزنهن ولو جرام واحد.

لا تنظري إلى مقاييس جمالية تشعرك بالإحباط، أنت لست نجمة تنفقين الأموال على جسدك، ومظهرك لتبدين بشكل تحلم به الأخريات، ثم أن حتى النجمات بعضهن لا ترضين عن أجسادهن ومنهن جوليا روبرتس مثلاً.

ارضِ بنفسك، تقبليها وأحبيها، فلكي تجدي من يحبك لابد أن تخرج طاقة إيجابية من داخلك تحمل رضاك عن نفسك إلى الآخرين، انطلقي قولي للعالم أنا كده، أحبني كما أنا.

سرحت طويلاً في كلام الطبيبة، تمنيت لو استطعت تنفيذه وسألت نفسي: ولم لا؟

أقول لنفسي: أتصالح يعني إيه؟ وليه أصلاً يبقى شكلي مش حلو قوي؟ ليه مااتولدتش بيضا وشعري ناعم وخدودي تفاحي وعينيا ملوّنة وعودي حلو، سمباتيك في اللبس، مش مغري بالنظرات الوقحة؟

قررت أن آخذ بنصيحة الطبيبة مع بعض التعديلات في مظهري لأكتسب ثقة في نفسي.

تذكَّرت أني وضعت المكياج مرَّات قليلة، ونادرًا ما فردت شعري في الكوافير لأحضر فرحًا أوعيد ميلاد صديقة، وقتها كنت أبدو جميلة وأحيانًا ملفتة للنظر.

تذكرت أيضًا تلك الأوقات التي كنت أرى فيها تزاوج الفئران، والمشاهد العاطفية بين الفنانين.

في الصباح تناولت إفطارًا خفيفًا جلبته بالسبت من السوبر ماركت، وعندما لاحظت تردُّد صبي البقال في إجابتي همست لنفسي:والله لو اللي في دماغي طلع صح لأمسح بيك شوارع السيدة زينب يا علاء الكلب.

عندما خرجت سمعت أم هدير على السلم تتمتم: سلام قول من رب رحيم اللهم احفظنا الحمد لله الذي عافانا.

ألقت تحية الصباح ونزلت السلم بسرعة دون أن تلتفت وراءها

في الشارع لاحظت تهامس النسوة، ونظراتهن لي، لكني تجاهلت كل ذلك ودخلت إلى الكوافير.

قبَّلتني داليا الكوافيرة وهي تستقبلني بحفاوتها المعتادة:حمد الله ع السلامة يا ونسة ربنا ما يغيِّبك تاني، ألف سلامة ليكي.

نظرت إليّ جيهان ابنة أم تامر التي كانت تجلس تحت يدي داليا لتفرد شعرها وقالت:المهم يكون ربنا شفاها من موضوع الفيران ده، وربنا يهديها لحسن جابت لنا كلنا رعب، أنا مانمتش تلات ليالي بعد ماموِّتوا الفيران والمصيبة إني شفت جثثهم وكانوا كبار قوي إنت كنتِ بتأكِّليهم إيه؟

شردت ولم أعرف بما أرد ثم ابتسمت بهدوء استجابة لنصيحة الطبيب الذي قال لي إن ما لديّ ليس جنونًا كما قد يظن البعض، إنه اكتئاب تمكَّن منيّ وجعلني لا آمن لأصدقاء إلا الفئران، وقال إني إنسانة طيبة ولدي ميول رائعة لمساعدة الآخرين والوقوف بجوار الضعفاء وربما كان إحساسي باحتياج الفئران لي كصديقة ترعاهم هو ما دفعني لذلك، لكني بالغت في هذه الصداقة حتى طغت على مصلحتي فأصبحت مهدِّدة لسلامتي الشخصية والنفسية، إذ أنها تمنعني من التواصل مع البشر، وتعزِّز عزلتي عن العالم.

نصحني الطبيب ألاَّ أعامل الناس بخشونة حتى لا ينفروا مني، وأن أعاملهم على قدر عقولهم.

جيهان بنت تربَّت جيدًا، خريجة جامعة، لماذا يفترض أن يكون عقلها صغيرًا؟

ألا يدرسون شيئًا في الجامعة عن مراعاة إحساس المرضى أو المكتئبين أو هؤلاء الذين فقدوا عزيزًا عليهم ولو كان حيوانًا؟

والله ما دخلت الجامعة ولا شفتها، لكن جدي علمني إن الحيوان روح، ولازم نحترمه ونزعل لو فارقنا، والنبات كمان روح لازم نخاف عليها.

أخرجتني داليا من شرودي قائلة: جيهان خلَّصت تعالي أعمل لك شعرك يا أحلى بنوتة.

سخرت هامسة:أحلى بنوتة؟

فردَّت داليا: ربنا يسامحها أمك يا ونسة إزاي خلِّتك مش واثقة من نفسك كده؟

أمي لم تكن تدلِّلني كما تدلَّل البنات، وفي ساعة الغضب لم تكن تناديني إلا بكلمة "وحشة "، "روحي يا وحشة تعالي يا وحشة".

كانت تحبني، لكنها كانت امرأة لا تعي ما يخرج من فمها ساعة الغضب، لا تدرك أن ذلك ربما رسخ في ذهن ابنتها وعاشت به.

تسألني داليا: إنت ليه ماتكمِّليش تعليمك؟إنت ناصحة وذكية فيه جامعة مفتوحة دلوقت أنا بادرس فيها، أنا تعليم متوسط زيِّك ودخلت كلية تجارة جامعة مفتوحة، ما تدخلي يا ونسة وأهو نبقى نروح ونيجي سوا.

شعرت أن ما تقوله داليا هو عين العقل لكني تردَّدت قليلاً ثم سألت داليا: جامعة مشتركة؟ أولاد مع بنات؟

تدوِّي ضحكة داليا وهي تجيبني أنني لابد أن أكسر خجلي هذا، لابد أن أعيش حياتي، وأتعلم التعامل مع الناس.

الكلام يدخل من أذني إلى عقلي فأفكر وأسأل لكن هاعمل إيه بالشهادة؟ أنت نفسك هاتعملي إيه ما أنت كوافيرة وبتكسبي؟.

ترد داليا: بصِّي يا ونسة التعليم مفيد في كل الأحوال، على الأقل تخرجي شوية من دايرة الشارع والسيدة زينب، وتعرفي أصحاب جداد، وتشوفي الدنيا.

- تعرفي يا ونسة؟

- إيه؟
- أنا كنت شاطرة جدًا في المدرسة ربنا يسامحه أبويا طلَّق أمي ومكانش بيصرف على تعليمي، واضطريت أدخل ثانوي تجاري بدل عام عشان أخلص بسرعة واشتغل لكن فكرك أستسلم؟

ينقضي الوقت في الكلام، وأخرج من تحت يدي داليا مفرودة الشعر فأبدو واحدة أخرى؛ زججت حاجبي، وأزلت شعر الوجه الزائد، فازدادت ملامحي رقة أكَّدت لي إيَّاها صورتي في مرآة الكوافير.

تقول داليا أنني جميلة، وتنصحني أن أهتم بنفسي وسأرى قمراً في المرآة.

ألف الإيشارب وأخرج، لا يبين شعري للناس، لكني أشعر أن تحت الإيشارب أنثى جميلة بشعر ناعم، تفوح منه رائحة المكواة واسبراي تثبيت الشعر.

أشتري فرخة وخضار ثم أسير متجاهلة نظرات البعض المندهشة، ولا ألقي بالاً إلا لمن جاءت تحتضنني وتسألني عن صحتي.

في المساء أتلقى تليفونات أخوي للسؤال عني، وأغرق نفسي في قراءة الروايات العاطفية، لكني أفكر وأسرح فيما قالته الجامعة المفتوحة.

في الصباح فتُ على بيت داليا لتذهب معي إلى الجامعة نسأل عن أوراق التقديم للدراسة.

الفصل الخامس

بدأت أسعى جاهدة للالتحاق بالجامعة لكي أغيِّر حياتي وأصبح فتاة جديدة.

ساعدتني داليا، وقمت بإجراءات التقديم ودفعت المصروفات، ثم ذهبنا إلى منطقة وسط البلد لشراء ملابس جديدة.

دخلت إلى بروفات المحلات، أقيس هذا وأبدِّل ذاك، أراني في المرآة بفستان عاري الكتفين، أسدل شعري ثم ألمه إلى أعلى، وأفرد طولي بعد أن انخفض وزني أثناء فترة العلاج..

أحدِّق طويلاً لأجد أمامي فتاة لم أرها من قبل، فلم أجرِّب يومًا أن أرى كل تفاصيل جسدي مع وجهي وشعري، لا بأس بتلك الفتاة التي أراها أمامي الآن.

أبدو أقرب للطول، ممشوقة القوام مع بروز خفيف للبطن، ومؤخرة تقول عيون الوقحين أنها مثيرة، عينان سوداوان تسكنهما الدهشة والوجع والرغبة وحب الحياة، رغم الوحدة والألم وضياع الأحلام، خدودي ليست بارزة لكن أنفي به جمال ما، سمرتي؟ مالها؟ ألا يقولون أن السمار نصف الجمال؟

ثم أني أنتظر من يحبني لشخصي، لا من يحبني لجسدي الفائر أو وجهي المعتنى بتفاصيل جماله.

ألقيت بطرحة الرأس بعيداً وخرجت لتراني داليا بدونها في بلوزة كتان بيج وبنطلون جينز أزرق.

صرخت داليا دهشة وفرحة وهي تقول: الله يا ونسة قمر والله أيوه كده كيدي الأعادي.

هززت كتفي خجلاً وجريت عائدة إلى البروفة لأعيد ارتداء ملابسي وطرحتي.

وفي لحظة شجاعة وربما جنون قررت شراء البلوزة الكتَّان والبنطلون، وخلع الطرحة نهائيًا، لأسير بشعري كبنات أخريات قد لا يكنَّ كثيرات في حيِّنا لكنهن يثرن غيْرتي بانطلاق شعورهن في الجو تنثر الحياة.

لكم تمنيت أن أبدو جميلة ولو لساعة، ربما حقق لي ذلك هذه الأمنية.

لا أظن أن الله يغضب عليّ لأني أريد أن أبدو في كامل أنوثتي.

كنت أفكر في كل ذلك داخل البروفة، وفي عشر دقائق كنت قد حسمت أمري.

خلعت ملابسي مرة أخرى، وأعدت ارتداء الطاقم الجديد، وتركت شعري ينسدل على كتفي، وخرجت ممسكة بملابسي القديمة البنطلون الواسع والبلوزة الحرير الفضفاضة، وضعتهما في كيس وحاسبنا المحل وخرجنا للشارع.

نظرات الإعجاب بي من الشباب وإن كان بها وقاحة إلا أنها عوَّضتني كثيرًا عن إحساسي بالقبح الذي لازمني طويلاً بلا داعٍ، وإن كنت لم أتخلَّص بعد من هذا الإحساس.

أحب تموجات شعري، لكن بفرده في الكوافير صرت أبدو فتاة جذابة ولا أنسى أن لي جسدًا فاتنًا.

هكذا اكتملت الصورة، سيري يا ونسة وقولي للأرض: "اتهدي ماعليكي قدِّي"

***

صمَّمت أم عزة على البقاء بجواري رغم رفض بناتها وأزواجهن ذلك،وإلحاحهن في أن تقيم مع إحداهن، لكنها كانت تجد حرجاً في الإقامة مع أزواج بناتها، وترتاح لقضاء الوقت ما بين بيتها وبيتي تقرأ أم عزة فنجان قهوتي وهي تضحك متفائلة دون سبب واضح.

تقوم بقراءة الآية الكريمة : بسم الله الرحمن الرحيم ((ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)) ١٢ مرة مغمضة العينين ثم تمسك الفنجان من نفس المكان الذي مسكته منه وبنفس الطريقة عند رفع الفنجان تقول بسم الله الفاتح.

ترى أم عزة في تعاريج صنعتها القهوة ما تقول أنه إشارات وعلامات تدل على المستقبل، تنقبض ملامحها قليلاً وهي تخبرني عن ثلاثة نسوة ينتظرن مني كلمة الموافقة على بيع عقار، أشيح بيدي لها :قديمة، غيرها.

تبتهج وهي تشير إلى ملامح رجل يظهر في الفنجان وتقول إنه أسمر، طويل ذو شارب خفيف وشعر ناعم وأنه معرفة قديمة، وينتظر منذ فترة الفرصة المناسبة ليفاتحني، أضحك بملء فمي وأنا غير مصدقة فتؤكد أم عزة بثقة: ربنا يجعله من نصيبك

لم أعد محبوسة في قفص انتظار ابن الحلال، لدي حياة جديدة صارت تشغلني، فبعد مرور سنة على دراستي بكلية التجارة صرت فتاة جامعية عصرية بمعنى الكلمة، أرتاد السينما مع داليا وصديقاتنا الأخريات، نسير في الشارع بلا خوف، نأكل السندوتشات والآيس كريم ونضحك من قلوبنا.

أعوِّض ما فاتني، فقد أصبح لدي هدف واضح أن أنهي دراستي وأعمل في وظيفة محترمة أو أدخل في مشروع خاص، كوافير مثلاً مع داليا.

في السنة الثالثة من دراستي بعت كل ما أملك من ذهب تركته لي والدتي، واقترضت بضمان المعاش مع بعض المال الذي ادَّخرته في البنك واشترينا محلاً صغيرًا لنبدأ مشروعنا.

أثناء توضيب المحل رأيت فأرًا كبيرًا يجري بداخله، لا أخفي عليكم شعرت بحنين لتلك الأيام التي كنا نعيش سويًا فيها أنا وفئراني، تلك الحيوانات الوديعة المسالمة، وللحق أنني لم أشف تمامًا من الاكتئاب الذي دفعني لتربيتهم واعتزال الناس فقد كان يعاودني بين الحين والآخر.أحيانًا أشعر بالوحدة رغم انشغالي بالدراسة وصداقاتي

بالبنات من زميلات الكلية وداليا لكن الدراسة يوم واحد في الأسبوع.

مازلت أعافر مع داليا لينجح مشروع الكوافير ونقب على وش الدنيا.

ستر الله نعمة صديقتي وتزوجت من ابن عمها وساعدتها لإصلاح ما حدث لها بعد أن أقسمت لي أن ذلك النذل الذي أحبته اغتصبها عنوة، وأنها رفضت أن تتزوجه، وقررت أن تتخلَّص من الجنين وتتحمل وحدها المصيبة.

في فرحها رقصنا جميعًا، وضحكنا من قلوبنا، وقرصناها في ركبتيها حتى تورَّمت.

صرت أرى في كل رجل حولي عريس محتمل، وفي هذه الفترة دخل مصطفى حياتي.

حين قابلت مصطفى كنت قد وصلت للخامسة والثلاثين من عمري ومازلت أدرس بالسنة الثالثة.

كان يعمل بالمحاماة تعرَّفت عليه من خلال شلَّة صديقتي هند صاحبة داليا وزميلتها في الجامعة، أخو هند شاب مقطَّع السمكة وذيلها كما يقولون، لم يكن أسمر ولا طويل ولا معرفة قديمة كما قالت أم عزة، بل متوسط الطول، أبيض البشرة، وبدون شارب، أخذتني نظراته الجريئة الشقية إليّ، والاهتمام البادي في صوته، تردَّدت كثيرًا قبل أن أخرج معه، أنا التي لم تمر بقصة حب حقيقية أبدًا، ونسة التي

احتفظت بعذرية مشاعرها وعذرية جسدها، لم يقترب مني شخص إلا متحرشًا أو في حلم أو خيال.

كانت أول مَسْكة يد من مصطفى ليدي قصيدة، بل أغنية تدفَّقت معها مشاعري وأنوثتي فتدفَّق الدم في كل خلاياي.

القبلات التي طالما رأيتها في الأفلام والتي حلمت طويلاً بها نلتها من شفتي مصطفى، في مصعد عمارة قديمة بوسط البلد، في السينما، في شوارع خالية بعيدًا عن الأنظار في مركب شراعي بالنيل.

مصطفي وعدني أن يتقدم لخطبتي لكن بداخلي كان هناك صوت يقول بإصرار: ارجعي يا ونسة هذا الشاب مخادع فيعلو عليه صوت آخر يقول: استمري يا ونسة إذا لم تعيشي الآن فمتى تعيشين؟

ظل كلامه المعسول يكتم صوت الرفض بداخلي كان يتسلَّل إلى جسدي خطوة خطوة اقتربنا كثيرًا وطويلاً، كان يقول لي: جسدك ملكك يا ونسة تسري به نبضات روحك وقلبك. حرِّري جسدك يا ونسة، كانت هي كلمة السر التي استخدمها معي مصطفى.

يقول: يا ونسة أنا لا أريد اغتصابك، ولا أريد أن أؤذيك فقط أريد أن أتواصل معك وأبثك أشواق جسدي لجسدك، نحن زوجان أمام أنفسنا وأمام الله لم يبقَ لي إلا أن أكمل ثمن الشقة، لأدخل إلى أخوتك بيدي ملئى وحتى لا يقال إني طمعان في شقتك.

كلماته كانت تستوطن أذني ثم تغادرها إلى قلبي وأعصابي، تجعلني أتوه في دنيا كلها شغف ومحبة، أرى الناس ملائكة بلا أجنحة.

أقبِّل أم عبده بائعة الجرجير وأكاد أحمل كل طفل أراه في الشارع، أجلس كل عجوز في المترو مكاني، أبكي من أجل كل فقير وعاجز ومريض.

أليس هذا هو الحب؟

الشغف برجل يساوي شغفي بالحياة وعشقي لها، الحب له عندي معانٍ كثيرة.

لست كمروة وأسماء زوجتي أخوي.

أستطيع الآن وبوضوح أن أعرف الفرق بيني وبين الأخريات، فهناك من تتزوج لتتجنب ولكي لا يقال إنها عانس، و هناك من تبحث عمَّن يعولها أو يموِّل شراءها للملابس والبرفانات والمكياج، وهناك من تبحث عن قلب حنون يحتوى أيامها ويطبطب على كتفها في مصائب الدهر وآلامه أما أنا فقد كنت أبحث عن حبيب، شريك لمتعة الحياة، نصف آخر خشن لا استشعر ذكورته فقط في شعر ذراعيه وصدره وإنما أرى في عينيه رجولة وغيرة وحمية طالما افتقدتها وحسدت عليها غيري من البنات.

كنت أبحث عن رجل كلما أوحشني تلمَّست روحي لأستعيد بصماته الرهيفة فوق ملامحها.

أشرد أثناء محاضراتي، تضبطني البنات متلبِّسة بالابتسام حين يمر خاطر يحمل لي إحدى كلماته أو قفشاته، أودُّ لو حدَّثت عنه زميلاتي وجاراتي وأحجار الشارع وعجلات المترو أتمنى لو أنه جاء إلى شرفتي في المساء ليغني لي فأهبط مسرعة إليه واحتضنه

تضحك داليا لكل ما أقوله وأفكر فيه وتصر أن الموضوع ليس كما أراه وأن علي أن أهدأ قليلاً فليس كل من قال أحبك يحب بالفعل.

أتوه في كلامها ولا أجد نفسي، مازالت تتفلسف حتى في الحب، تقول إني لا أحب مصطفى بالفعل ولكني أحب حالة الحب نفسها، أنكمش على نفسي وأسكت.

لا أريد أن أحكي لأحد، يكفيني حب مصطفى واهتمامه بي

الليلة التي تعرَّيت فيها أمامه في منزله حين غابت أسرته بالمصيف كانت تشبه يوم عرس حقيقي، عانيت الفرحة المشوبة بالرهبة، توتر أول لقاء جسدي برجل، تلك المخاوف التي بثتها فينا الأمهات منذ الصغر، إذا اقترب منك ولد سيفقدك شرفك، إيَّاك والاختلاء بأحدهم.

الحب عند الأمهات هو الباب الملكي للخطيئة، ربما كانت تلك حقيقة وربما كانت أسطورة، قرَّرت أن أوقف تيار هواجسي والهي نفسي قليلاً بكلام مصطفى المعسول حتى لا أفقده، ثم قرَّرت ألاَّ أمنحه نفسي تمامًا وأن أبقى بنتًا فما يدريني أن القدر سيجمعنا كزوجين ؟ وهكذا ظللت طوال اللقاء أترنح بين مشاعري نحوه وشكوكي فيه ومخاوفي تجاه شرفي وعذريتي.

وهو كاد يقول شعراً في كل جزء من جسدي فأنا الجميلة المشتهاة، الكنز المدفون، وجنَّته التي سيسكنها وحده.

كـان قلـبي يخفـق بشـدة وأنـا مزنوقـة بجـواره علـى سـرير حجرتـه المعدني الصغير المصنوع ليتسع لشخص واحد.

أثنـاء لقائنـا الحمـيم تعرَّق جسـدي كلـه وأصـابتني كرشـة نفـس مفاجئـة رغـم أنـني في البدايـة كـدت أطـير فرحًـا فـأخيرًا سـأكون بـين أحضان من أحب تلك الأحضان التي ألجمت بداخلي صوت الحذر، وأتـت بي إلى مكـان مغلـق يضـمُّنا وحـدنا بعـد أن ارتـدينا ملابسـنا، أحتضـنني بشـدة وقـال لي أنـني زوجتـه. خرجـت مـن بيتـه مطمئنـة أنـه زوجي القادم وحياتي مرهونة بحياته.

مـرت الأيـام بعـد هـذا اللقـاء وبـدأت نـبرة صـوته تتغـيَّر معـي في التليفون، يخبو الشوق في اللقاء.

أغـالط نفسـي، هـو لا يتهـرَّب ربمـا كانـت الظـروف كمـا يقـول سـفريات مفاجئـة وعمـل متواصـل ربمـا كـان يـدَّخر ثمـن الشـقة ليسـرع بزواجنـا، أحـاول أن أقابلـه، فـلا يمنحـني مـن وقتـه إلا نصـف سـاعة نتناول ساندويتش أو يوصِّلني لمحطة المترو بعد المحاضرات.

الفأر الذي نبش في عبِّي كبر وترعرع وصار يؤرِّق منامي، خرج لي ذات ليلـة ليـذكِّرني بأنـه نبَّهـني وبـأن الولـد لعـب بي وكـان يريـد أن يذوقني، كان يريد قضاء وقت ممتع مع جسدي ليثبت رجولته. وها هو يتهرَّب مني ويفلت من وعوده.

يصرخ الفأر المتشكِّك بداخلي:

الحب الذي كان يهدر من صوته صار خافتاً بطيئاً معوقاً هاجميه يا ونسة واجهيه بضراوة..........أعرفي آخره.

في الصباح هاتفت مصطفى بدأ يسرد أعذاره كالعاده، قاطعته، علا صوتي وأنا أواجهه بأنه لم يحبني وأنه يتسلَّى بمشاعري، صرخ قائلاً إنني نكدية وغير صبورة وأنانية، لا أراعي ظروفه ثم أتى بها من مكمنها: نحن لا ننفع كزوجين مبرِّرًا أنه لا يريد من يخنق حريته ويقيِّده، ثم قالها صريحة أنت لم تخسري شيئًا لقد كنت في منتهى الحرص ثم أغلق التليفون في وجهي.

ومعه أغلقت في وجهي دنياي التي صنعتها بعد الشفاء أوسع أبوابها، سقطت فجأة من عليائي وعدت إلى نقطة الصفر، أنظر إلى نفسي في المرآة محاولة استعادة ثقتي في ونسة فلا أستطيع.

أحاول الخروج مع داليا وشلَّتها، فتعجز إرادتي حتى عن القيام من سريري.

أيام عديدة مرَّت عليّ دون أن أشعر بطعم لأي شئ، فتارة أشعر بافتقاده، وتوحشني لمسة يديه وأنفاسه الشهية، رائحة عرقه وعطر رجولته وتارة أشعر بتقزز وقرف منه ومن كل الرجال.

أشرد لساعات وأنا أفكر فيه.

من السذاجة تخيُّل أن رجلاً يمر بكل هذا حين يفارق فتاة

لابد أن الأمر لا يعدو بالنسبة لمصطفى أكثر من سيجارة انتهى من تدخينها.

***

هذه المرة لم يخترق عزلتي وينقذني منها سوى داليا، صديقتي التي صارت أقرب لي من أخوتي، ارتميت في حضنها وحكيت لها عمَّا فعله بي مصطفى، أخبرتها أنني سأعود للعزلة لا جامعة ولا عمل ولا ناس، سأعود لتربية الفئران.

صمتت داليا قليلاً ثم أخذت تربِّت على كتفي قائلة :"يا ونسة انت لسه مشفتيش حاجة".

قالت إنها أصغر مني بعامين لكنها تعرف الكثير عن الحياة، وأن الدنيا لا تقف عند أحد.

سألتني مستنكرة عن ذلك الذي يستحق أن أعود للوراء من أجله؟ من الذي يقتل في حب الحياة والطموح والفرحة؟

ثم قالت :تعرفي يا ونسة؟

- نعم؟

- عمري ما حكيت لك عن حياتي الخاصة وشقايا فيها

- شقاك؟ أنت؟ داليا ذات الابتسامة الساحرة؟

- يا ونسة كل واحد منا له فيرانه الخاصة على فكرة "ومن رأى فيران غيره هانت عليه فيرانه".

تغمز داليا وتضحك فأسكتها بحزم :إلا الفيران حبي الأول

أراها تضحك دائمًا والدنيا لا تسوى في نظرها، لكنها كما تقول تداري حزناً بذلك القناع الباهت الذي لو دقَّقت فيه قليلاً لما صدَّقته.

أمد يدي إلى وجه داليا مازحة وكأني سأنزع عنها قناعًا، فتضربني برفق على يدي ونتضاحك.

ندخّن سيجارة واحدة سويًا ثم تبدأ داليا الكلام فتحكي كيف بدأ مشوارها مع الرجال مبكرًا بعد طلاق أمها من أبيها وما رأته من ظلم على يديه وهي بعد طفلة في السابعة من عمري

لم يعد الرجل يعني لها سوى شخص يجئ ليخرج معها مرة في الأسبوع ويصطحبها إلى جدتها أو إلى السينما أو لشراء ملابس أو حلوى.

حتى هذه الخروجات قلَّت بعد أن تزوج بأخرى وأصبح له منها أبناء.

ارتبطت بوالدتها كثيرًا، كانت تلازمها كظلها، تكاد تعد أنفاسها، تتذوق ملوحة دموعها وهي تقبلها لتخفِّف عنها فكثيراً ما كانت تبكي وحدها في الغرف المظلمة وفي المطبخ وأمام التليفزيون، وأمام المصحف، وأمام أغاني أم كلثوم.

تقول داليا بلامبالاة :أمي كانت بتحب الرجل اللي اسمه أبويا، معرفش ليه طلَّقها وسابنا، عمرها ما قالت تفاصيل كانت بتخاف إني أطلع معقدة أو حزينة أو مشوَّهة نفسيًا مكانتش متعلمة قوي بس كان عندها كتير من الوعي والطيبة والحساسية

لكن ذلك كله لم يمنع والدة داليا المرور بلحظات جنون عديدة؛ رأتها داليا الطفلة تقف أمام المرآة عارية تستعرض جسدها وتلعب في أعضائها وتغنج.

رأتها تتقلَّب ليلاً وهي تدعو على أبيها بأبشع الدعوات ودموعها الحارقة تغرق مخدتها.

رأتها تدخِّن بشراهة وتتحدث مع غرباء في التليفون بمياصة ثم تغلق الهاتف وتنزع الفيشة مستغفرة الله وتجري إلى الحمَّام لتتوضأ.

رأتها تحدِّث نفسها كثيرًا، تحسب لكل لفتة ولكل كلمة حساب، تفكر في الزواج ولا تجد رجلاً يتحمل ظروفها.

لم تكن أمها تستطيع الجلوس في البلكونة حتى لا تظن الجارات أنها تشاغل أزواجهن، لم تكن تستطيع زيارة أي من صديقاتها خوفًا من نظرات الطمع في عيون الأزواج ربما كانت تبالغ في ذلك، لكنها استسلمت له حتى صارت وحيدة بلا صديقة ولا جارة تزورها.

منذ صارت داليا مراهقة وهي مشغولة بالجنس الآخر، ذلك العالم الغريب عنها المثير جدًا بالنسبة لها، فشلت في أكثر من قصة حب حتى أصبحت تخشى أن يكون الفشل لعنة ورثتها عن أمها.

غرقت في عملها بالكوافيرات حتى أتقنت المهنة لكنها ظلت تبحث عن نصفها الآخر.

وفي مجتمعاتنا يربُّون الفتاة على أنها ناقصة ما لم تجد هذا النصف لتكمل به عوارها الذي يظل ملازمًا لها لو لم تقترن برجل.

أسألها: يعني إحنا أنصاص؟

تجتاحنا موجة من الضحك وتبادل القفشات وينزاح الهم رويدًا رويدًا عن قلبي وأسأل داليا عن صديقها ذلك الذي لمحت لي أكثر من مرة أنها تحبه.

تجيب داليا :الحكاية طويلة يا ونسة أنا كمِّلت الثلاثين وبدأت أعنِّس وجاري البحث عن عريس، صحيح أنا حلوة وشاطرة وكسِّيبة لكن سوق العرسان زفت.

سوق؟

أيوه سوق للأسف.

تحكي داليا لي عن أكرم الذي تعرَّفت عليه بالصدفة وتوطَّدت صداقتهما على الفيس بوك كانت تعلم منذ البداية إنه متزوِّج، صارحته بأنها تخشى أن تتطور علاقتهما فتفقده كصديق ولكنه طمأنها وتواعدا على الأخوَّة والصداقة الخالصة وعلى أن أحدهما لن يؤذي الآخر، ولن يؤذيا طرفًا ثالثًا لا ذنب له في قربهما.

وتمر الأيام لتقرِّب بينهما أكثر يتحدثان أحيانًا بالساعات، صور كل منهما تأخذ بلب الآخر. والخيال الذي يسيطر عليهما يخلق ودًا والتشابه يمد حبالاً للوصال.

يقول لها كلاماً عذباً و يغازلها بشهوانية أقرب للحب.

تتوه في علاقتهما لم تعد تجد لها اسماً هل هي حب أم افتتان وشهوة؟. هل هو احتياج متبادل؟

وفيما يحتاجها رجل متزوج من امرأة جميلة تحبه؟

ظل يخايلها حتى رضخت له، واستجابت لمشاعر إليكترونية لم ينطق فيها بكلمة حب.

لكنها تشعر به تشعر حين تراه على الشاشة أن جزءًا منها قد حضر.

سألتها وهي تحكي:

وآخر هذه المشاعر الأليكترونية يا داليا هاتتجوزوا؟ تخربي بيت واحدة تانية؟

لا يا ونسة لا والله أموت قبل ماعملها، أنا دُقت مرار الطلاق مع أمي، عمري ما أتسبب في خراب بيت أو أذى لِسِت زيِّي.

- طب عايزة إيه منه؟

- ولا حاجة.

تدمع عيون داليا وهي تستطرد ملتاعة شارحة لي كيف أن من يحب حقًا لا ينتظر إلا سعادة المحبوب، وأنها لا تريد شيئًا منه إلا أن يكون موجودًا بجوارها؛ بكلمة بسؤال، بفضفضة.

سيمنعها ذلك عن العلاقات الطبيعية الأخرى هكذا يقول الطبيب النفسي الذي استشارته.

- فليكن، أنا مقدرش على فراقه.

أمام كل خمس رسائل منها يرد برسالة.

يصرِّح أحيانًا بفرحته بها ويلمِّح أحيانًا أخرى بغرام مستتر.

ولا تعلم إلى متى تستمر قصتها معه فلا يريد أحدهما إطلاق رصاصة الرحمة وكتابة كلمة النهاية حتى الآن.

أقول لها بإصرار :إنت لا هيِّنة ولا رخيصة يا داليا، تستحقي أفضل من كده ده راجل متجوز بينقطك على البعد باهتمامه وحنانه.

ترد بأنه بالنسبة لها كالمال تمامًا، قد تموت إذا لم يكن معها، لكنها تقنع بالقليل منه، وعندما يأتيها تنفقه على غيرها أحيانًا تجعل نفسها أميرة بفلوسها وأحيانًا تعيش على الكفاف.

اندهش لكلماتها وهي التي طالما نصحتني بالتعقل في الحب.

تواصل حكاياها وهي تحتضن المخدة قائلة إن مشكلتها الكبرى أنها كلما نوَت قطع هذه العلاقة الغريبة التي ليس منها أمل أو رجاء أو شفاء تفشل.

تسبل عيناها وتهمس يا ونسة. إنت متعرفيش تأثير الحب المكتوب.

أسألها أن تصفه لي فتسهب في الوصف وتشرح برومانسية بلهاء تفوق رومانسيتي مع مصطفى كيف أن الحب المكتوب في رسائل يمتلك مخالب تحيي الذكريات وهي رميم، فعندما يطلق المحبوب كلامًا عبر الهاتف، أو يدبج الغزل والمديح ليلقي به في أذن الحبيبة، أو يستجيب لمشاعرها بهمسة أو ابتسامة جميلة.

تظل هذه المشاعر والاستجابات تنخر في قلب من يحب، وكأنها تقول له : كنت يومًا تملك الدنيا والآن صرت مفلسًا منبوذًا، فما بال لو كانت الكلمات مسجلة ومكتوبة وبالإمكان استعادتها بتواريخها وأيامها بضغطة على جهاز كمبيوتر أو تليفون محمول، ساعتها بدلاً من أن تكون هذه المكاتيب دليل غرام قد تتحوَّل إلى شواهد على أن

طرفًا ما كان يكذب ويدلِّس وآخر كان ينتظر الحب الحقيقي ويلقمه من بين السطور ليعتصره كرضيع وجد ثدي أمه.

دخلت أم عزة علينا ونحن غارقتان في حديث الحب فقلنا إنها جاءت في وقتها تمامًا.

وهي ضحكت ضحكتها المألوفة التي يخرج معها شقاء السنوات مخلوطًا بعزم وإرادة لا تلين.

قالت بتحدٍ :لو واحدة منكم حبَّت أو لقيت عريس تعالوا شخُّوا على قبري.

الحب يا امَّات عقل صغير بحره واسع، رجَّالة الأيام دي مش من الحبيبة اللي بتشوفوهم في السيما.

تحذِّرنا ألاَّ أحد يفكر إلا في لذة عابرة أو علاقة سريعة، أما الزواج والاستقرار فمسألة أخرى خالص.

لا نأخذ كلامها مأخذ الجد رغم أنها تقوله ناصحة، وتشدِّد وتعيد وتزيد فيه لكننا لا نملك إلا الانقياد لمشاعرنا، رغم ما تتوعدنا به تلك المشاعر من آلام وجراح.

تجلس لتشرب معنا القهوة التي أعدَّتها وتلح عليها داليا في التسرية عنا بقراءة الفنجان.

يعود الرجل الأسمر الطويل ذو الشارب الخفيف والذي له معي معرفة قديمة للظهور في فنجاني كما تؤكد أم عزة أشيح لها بيدي غير مصدِّقة فهذه الأوصاف لم أقابلها ولا أتذكر صاحبها ثم أعطيها

ظهري لتمسك بفنجان داليا وتقول إن الأيام القادمة تحمل لها مفاجآت عديدة وأن سكَّة سفر في انتظارها.

ينقبض صدري فليس لي غنى الآن عن إحداهما.

***

إن ماقدرتش تضحك ماتدمعش ولا تبكيش
وإن مافضلش معاك غير قلبك
اوعي تخاف مش هتموت هتعيش
وان سألوك الناس عن ضي جوَّه عيونك مابيلمعش
ماتخبيش
قولهم العيب مش فيا ده العيب في الضي
وانا مش عاشق ضلمه ولا زعَّلت الضي
مسير الضي لوحده هيلمع
مسير الضحك لوحده هيطلع
مابيجرحش ولا يأذيش

كنت في حجرتي أستمع لتلك الأغنية، لا أستطيع مغالبة دموعي، ها هو مصطفى هجرني،ها هو يشعرني مرة أخرى أنني لا أملك سوى جسد فيه الطمع، لم يترفق بمشاعري التي أيقظها ولا بمستقبلي الذي تلاعب به.

أنظـر إلى وجهـي في المـرآة، فـأرى عشـر سـنوات أضـيفت إلى ملامحي، أنظر بداخلي فأجد فأرًا كبيرًا يجلس متربِّعًا ينظر إليّ بتحدٍ قائلاً : خفِّيتي يا ونسة من الفئران؟ بقيتي إنسانة سويِّة؟

أرد بتردُّد: أيوا بقيت سويِّة.

يضحك طويلاً حتى تغطِّي ضحكاته على صوت غيظي وآهاتي المكتومة، ثم يقول ونسة أنت خفيتِ لكن مش قوي ياعزيزتي

- إزاي؟

- انت بقيتِ شبهنا.

- أنا؟

- خوَّافة، جبانة، بتسرقي متعتك في الحب.

- أنا؟

- فين ونسة بتاعت زمان اللي تقول للأعور في عينه يا أعور؟

ينتهي الحوار بيني وبين الفأر الذي يتحوَّل فجأة إلى صورة دكتور خالد، ثم أفيق من الحلم.

****

في يـوم مـن أيـام وحـدتي قـرَّرت أن أعـود للجامعـة ولصـديقاتي وعنـدما فتحـت بـاب الشـقة لكـي أتجـه إلى الجامعـة فوجئـت بممِّـس أمـامي وقـد أصبح فـأراً يميـل إلى الشـيخوخة، لم أكـن أصـدِّق عيـني، رفعتـه مـن فـوق الأرض وقبَّلته يبـدو أنـه نجـا مـن المذبحـة وعـاش تلـك السنوات متنقلاً بين الشقق.

سألته عن أحواله فدمعت عيناه وأخبرني أنه لم يهنأ له طعام ولم يشعر بحنان بعدي وأنه نجا بمعجزة، كان قد تعرَّض لرش قليل قبل أن يتمكن من القفز من شبَّاك المطبخ حيث تصادف وجوده وحده وقتها بحثًا عن قطعة جبن رومي كانت قد أفلتت مني في الصباح، كان يريدها على سبيل النقنقة حتى يحين موعد الغداء، لكنها أنقذته من الموت الذي لحق بأسرته كلها وبأصدقائه، وبفضل موهبته في الاختباء والجري واصل حياته بين المواسير وفي المناور.

تزوَّج أكثر من مرة وأنجب وكلما أخذه الحنين كان يأتي إلى هنا ويحدِّثني ليلاً من خلف الباب، كان يخشى عليّ أن يفعلوا بي كما فعلوا المرَّة السابقة بسبب الفئران.

-لهذا كنت أحلم به أحيانًا وأشعر أنه يحدِّثني.

أخبرته عن حلمي به وبأنني فهمت معناه وبأن لا مصطفى ولا عشرة من أمثاله قادرين على إعادتي إلى ونسة الخائفة المذعورة المريضة فقط ستعود ونسة الجريئة تقول للأعور في عينه يا أعور.

قال إنه يعرف كل أخباري وأنه في هذه الليلة غلبه النعاس أمام باب شقتي ولم يستطع العودة إلى المنوَر.

-طلبت منه ألاَّ يتركني مرة أخرى.

-هنا بيتك يا فار يا عجوز إدِّيني بس ساعة زمن وراجعة.

تركته وأمامه الطعام وخطفت رجلي لمشوار سوق السيدة عيشة فقد صار لابد منه.

هذه المرة ستكون وليفة فقط لإيناس "ممس" في أيامه الأخيرة أي أنـه زواج ونَـس كـذلك الـذي يحـدث في دور المسـنين بـين النـزلاء والنزيلات أحيانًا، فلابد أنه عجز وقطع الخلف.

والأهـم أنـه لا مجـال الآن لمـلء شـقتي بـالفئران فأمـامي دراسـة وعمـل، وهـم "مـا يـتلم"، هـذا غـير صـاحبنا الـذي رأتـه أم عـزة في الفنجان والذي قد يظهر في أيَّة لحظة ليخطفني على حصان أبيض، وتبيِّن كرامة لأم عزة قبل موتها.

كنت في الطريق أفكر في كل ذلك حين داهمني خاطر أضحكني حد الدموع، أيكون ممس هو المخلوق الذي رأته أم عزة في الفنجان؟ أضحك وأستمر في استلهام المواصفات التي قالتها ساخرة فهو ذكر، أسمر اللون، طويل بالنسبة للفئران على الأقل على مستوى الذيل وبالطبع له شارب وهو بالتأكيد معرفة قديمة.

يا جمال فنجانك يا أم عزة وحلاوته!!!

سيرة ذاتية

سامية بكري مبروك محمد

محل الإقامة: القاهرة

بكالوريوس الإعلام- قسم الصحافة - كلية الإعلام جامعة القاهرة

كاتبة صحفية ومساعد رئيس تحرير بمجلة حريتي

محررة لصفحات المواقع الاجتماعية والثقافة بمجلة حريتي وجريدة الجمهورية

درست الكتابة القصصية بورشة الحكاية ومافيها

حاصلة على جائزة إحسان عبد القدوس للقصة القصيرة دورة ٢٠١١

لها كتاب عن الكتابة الساخرة على الفيس بوك بعنوان ظرفاء الفيس بوك صادر عن دارالعين ٢٠١١

كتاب مشترك مع ٦ كاتبات مصريات و٦ سويديات بعنوان "لاشئ للرجال فقط " عن المرأة المصرية والثورة ٢٠١٣

مجموعة قصصية بعنوان "رقصة مؤجلة" صادرة عن الهيئة العامة لقصور الثقافة "تحت الطبع"